الدكتور

ابراهيم ناجى

رسالة الحياة

١٧/٤٨

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة العالم العربى
٥ شارع كامل صدقى بالفجالة ت ٤٤٧٠٦

طبع بمطبعة العالم العربى بالقاهرة
٢٣ شارع الظاهر

اهداء

« الى الصديق الحبيب ع٠ م »

أيها الصديق الكريم ، كيف أؤدى لك بعض فضلك على ؟ أتذكر كيف كتبت هذه الرسائل ؟ كتبت بوحيك وتمت فى ظلال صحبتك ، فمنك واليك مرجع هذه الكلمات ٠

أيها الصديق : لقد رضيت أن يتوج حرفان من اسمك كتابى هذا ، وحسبى شرفا ، وحسبى مدى العمر سعادة وهناء٠

ابراهيم ناجى

تقديم

بقلم الشاعر العبقرى

الأستاذ أحمد رامى

عرفت ناجيا أول العهد بذكره كما عرفت أحبابى الشعراء فى كل عصر وأمة روحا تزخر بالألم وتفيض بالنغم . وكنت أقرأ له — ولم أكن أعرفه — على صفحات الجرائد قصائد تمس نفسى وتلهب حسى ، ويصل ما بين روحه وروحى من وشائج العاطفة ما يمزج روحين غريبين فى سماء الوحشة اذا التقتا على نغم حزين ، أو تأستا على جرح واحد .

وكنت ألقاه لماما ، وأنا لا أعرف أنه شاعرى الحبيب ، فأرى فى لفتته وايمائه ما يذكرنى بالطائر الفزع الذى يحسو الماء رشفة بعد لفته ، ويحيينى فاذا حب يتبلور فى نظرة ويتألق فى ابتسامة ، واذا به يلقى على من شعرى — ولا أعرف من الذى يتكلم — أبياتا متلاحقة قد لا أحفظها أنا بهذه النشوة ثم نفترق وأظل أقول فى نفسى من يا ترى يكون ذلك الشقيق للروح ويمضى الزمن فتطلع الجرائد وفيها شعر لناجى وأقرأه وأردده وأنا لا أعرف أن هذا الشاعر الهفاف فى سمائى هو ذلك الحبيب الذى ألقاه حينا بعد حين وأود أن أعرف اسمه .

هذه أول معرفتى بناجى .

أحببته لنفسه ولشعره دون أن أعرف الصلة بين هذين الاثنين ·

ثم دارت الأيام وأتيح لى أن ألقاه فى جماعة وسمعت من يناديه باسمه فانتفضت ونظرت اليه ونظر الى واذا لقاء روحين· روحى التى سبحت فى آفاق خياله وبكت معه فى مآسيه وغنت معه فى ترنيمه ، وروحه التوأم التى كانت تطالعنى وأنا لا أدرى أى جسد تسكن ·

واتصلنا انسانين صديقين فاذا عطفه يغمر الكائنات حوله واذا بشره ينتشر على السمار كما تنتشر غلالة النور على المرج الفسيح· واذا حديثه أشهى ما يكون فى العلم وفى الأدب ·

وأخرج ناجى من الشعر دواوين كنت التهمها التهاما وأرددها أنغاما وأتمثل بها خاليا وسامرا ·

وهو اليوم يقدم للقراء رسالة الحياة ، وهى كتاب بعثه الى خاطره ما قرأ ــ وما أكثر ما يقرأ ناجى فى شتى الفنون والعلوم ــ تناول فيه أبوابا من المعرفة كل منها يمت الى الحياة بصلة وثيقة ، ويجمع من شملها ما تفرق من أدب رائع وعلم نافع تزخر بهما هذه الحياة العامرة ·

وهو فى هذا الكتاب واسع الخيال واضح الأسلوب ناصع التعبير سهل الابانة يحط على كل غصن فى شجرة هذه الحياة فيقطف منها ثمرة جنية أو زهرة ندية ثم ينشر عرفها على الناس فكرة واضحة جلية ·

وقد قسم رسالة الحياة الى رسائل كل منها فى باب من أبواب المعرفة · فبدأ برسالة الأدب ــ وهو هواه قبل كل شىء ــ فتكلم عن

الجمال وعن الواقع والخيال وتناول الشعور والاحساس فقال ان العاطفة هى الوقود وهى الاشراق المنبعث من الفن ووصف ما بين العاطفة وبين الفكرة وهى فى نظره عمل العقل . وتكلم عن التعبير وهو جوهر الأدب وآيته تأدية رسالة الجمال . وخلص من بحثه الطلى الى أن العمل الفنى مدين للوعى والشعور وأن آجل ما يصنع الأديب هو محاولة الخروج عما هو شخصى الى ما هو انسانى .

ثم عرج بعد ذلك على البلاغة فقال انها استعمال روح اللفظ لا ذاته وسمى ذلك الموسيقى الباطنية أو الهمس الداخلى وهو فى رأيه سر الرمزية وهى المدرسة التى يتنبأ لها بالبقاء .

وتناول رسالة الحضارة فقال انها مبنية على تحرير النفس من العبودية والأنانية وتحرر الفكر من عبودية الجمود . وتكلم فى رسالة علم النفس عن الشخصية فقال ان الانسان لم يصبح انسانا الا حين أخذ يعرف أن هناك علاقة بينه وبين غيره . وقال عن هذه العلاقة الشاعرة المدركة أنها فجر الشخصية .

وتكلم بعد ذلك عن مواجهة النفس ومواجهة الحياة وقال فى علم النفس أن العثور على العمل والصديق يصرف النفس عن التفكير فى الهموم .

ثم تكلم فى رسالة العقل عن تطور العقل البشرى من فجر المدنية الى العصر الحديث . وتكلم عن العقل فقال انه وحدة تتكون من ثلاثة عناصر الشعور والذكاء والارادة . وخلص من كل هذا الى أن الذكاء الآدمى مكون من عناصر الاختبار والمقارنة وادراك الفروق واستخلاص النتائج والتحليل ثم الابتكار أو الخلق .

وتناول رسالة الشباب فتكلم عن التعليم والعقاب والثواب والوعظ ودلف من ذلك الى الاصلاح ، وتكلم عن الطفل ورأى رأيه فى عناده من حيث تقويمه باللين أو بالعنف وعارض فكرة الطاعة العمياء قائلا انها نوع من العبودية ٠

وتكلم عن دور المراهقة وما يسبقه من مرحلة المنطق وتكوين عقلية الشباب وتكلم عن العقد النفسية وعن علاجها ٠

وسرد أخطاء الشباب فقال انها الأنانية وحب الصراع والاستهتار والتحدى والاندفاع العاطفى الخيالى ٠

وفى رسالة النقد تكلم عن النقد الأدبى وقرر أن الناقد يجب أن تكون له ذهنية الفيلسوف والفنان معا ٠ وما كان أحلى اقتباسه من تشيكوف اذ يقول لأحد أصدقائه النقاد البعيدين عن الجمهور : « تعال ، اختلط ، استغرق فى الزحام ، تنفس أدبا لكى تعرف كيف تنقد أدبا » ٠ وتناول بعد ذلك فى رسالة الأخلاق علاقتها بالدين وعلم النفس ، وذكر رأى داروين فى بقاء الأصلح وفرق بين الأصلح فى عرف داروين والأصلح للبقاء فى عرفه ٠ وتكلم عن الطيب فى الحياة وكيف نصل الى اختياره وعرض فى رسالة الأدب الروسى الى ثورته على الاتجاهات الأدبية كما عرفها التاريخ الأدبى وتكلم عن الادب فى ظل العاطفة والعقل وقال ان الروس أفلحوا فى ايجاد الانسجام بين هذين وقال ان الأدب الروسى اختص بتناول المستوى الروحى وهو الطابع العام لهذا الأدب وقال ان الأدب الروسى يبحث فى أسرار الروح وتفاعلها وآلامها وحسراتها ٠ وأسند الى الروس قولهم أن هناك وحدة بين قانون العقل وقانون الخلق وأن الذى يعلق سعادته بجميع سعادات البشر لن يجد السعادة ٠

هذه ومضات خاطفة من شمس هذا الكتاب الزاخر بالنور فى شتى الآفاق من الفكر البشرى بعثها ناجى الى قراء رسالة الحياة ، ونجوى وعلما وخاطبهم فيها بلغة الشاعر المبين ·

ولئن كنا نعرف ناجيا شاعرا فى طليعة هذا الجيل فمن الحق الآن أن نسجل أنه فى الطليعة كذلك من المفكرين الموهوبين روحا تحس وتعبر عن هذا الاحساس فى أى اطار من التعبير ·

أحمد رامى

مقدمة

جلس رفيق سقراطى النزعة يحب أن يستكمل معلوماته بأسئلة يبحث فيها عن الحقيقة ، جلس الى رفاق له مختلفى المهن والعمل وكان من بينهم التاجر الكبير والمزارع والطبيب والمهندس والمدرس ورجل الدين ، جلس اليهم جميعا ليستفهم هل كل أحد منهم معه مفتاح حياته أو يشعر بها ويعرفها ، أم يأخذون الحياة كما اتفق كمن يركب سفينة لا يدرى الى أى مرفأ هى ذاهبة ؟

بدأ (س) أسئلته فقال : « أتدرون لاى شيء خلقنا أو لاى شيء خلق كل واحد منكم ؟ . لست أريد أن تجيبونى عن سبب خلقنا على الأرض وما هو غرض الطبيعة فى ذلك ، انما أريد أن تجيبونى عن السؤال الاسهل : لقد وهبنا الحياة ، فكيف نستعملها ولاى غرض ؟ وهل هناك غرض أسمى يصح أن نجعله هدفنا جميعا ؟ أم هل لكل منا رسالة خاصة فى الحياة توفر فى خلقه لها ؟ » .

فأجاب المزارع : « أما أنا فاحب أن تكون لى رقعة من الأرض جميلة منظمة أستغل خيراتها وأن أكون مزارعا كبيرا » .

وقال التاجر ، وكانت تجارته تجوب الآفاق : « بل أريد عندى المال الوفير ، مال قارون » .

وقال المدرس : « بل أريد أن يكون لى أبناء فى هذا الجيل أوجههم وأسعد بتوجيههم » .

وقال الطبيب : « وهل هناك أنفع من معالجة الأجساد » .

وقال المهندس : « وهل هناك أنفع من بناء الكبارى على الانهار ، أو مد من يشاء بالكهرباء » .

وأخذت العزة رجل الدين وقال : « بل أنا أريد أن أعبد الله تعالى وما خلقتم الا لتعبدون » .

قال صديقى (س) : « أصبتم ولم تصيبوا .. هل اذا كان عند أحدكم مزرعة كبيرة جعلتكم تقومون عليها ، فأى شىء أريد من اشرافكم ؟ » .

قالوا جميعا : « بل تريد أن تنشر فيها الخصب والنماء .. ان تعمر هذه الارض وأن لا تتركها صحراء وأن تأخذ منها آخر العام محصولا تستفيد به » .

قال (س) : « وهذه الدنيا أرض الله الواسعة بين أيديكم قد جعلتم خلفاء عليها ، بل نستثمرها جميعاً ونخرج بخيراتها ثم نعبد الله شكرا .

« اذن الحكمة فى خلقنا جميعا أن نعمر هذه الارض ونصلح من شأنها بقدر استطاعتنا ، فمن كان مزارعا قام على زراعتها ، ومن كان مهندسا قام على زينتها ، ومن كان معلما قام على علمها وحضارتها » .

فهل أفهم من ذلك أن كل فرد منا له رسالة خاصة يجب أن يسعى لها فمتى عرفها أتمها· فالرسل لهم رسالتهم، ونحن أيضا لنا رسالة·

وقد أجاب الدكتور ناجى على هذا السؤال بطريقه فأخذ نظرية داروين فقال ـ كما يقول بعض الأخلاقيين ـ انما هو الكمال آخر الأمر ، وان كلا منا يجب أن يتبع الخط الصاعد الى الكمال وأن يترك العالم عند وفاته فى نقط أعلا من الحضارة التى وجدها بها عند مولده·

وأريد انا أن أناقش الدكتور ناجى فى ماهية الكمال : أهو الجمال الاصبرتى للجسم أم هو الجمال الروحى والعقلى للأثينيين · أم هو الخير والجمال والكمال العقلى · أم هى الاجتماعية والروح الانسانية · أم هى بعد ذلك كله الروح الباطنة والاتصال بالمولى جل وعلا والصفاء الذهنى المتجرد السابح فى ملكوت الله ·

كل هذا سليم وقد أبدلنا كلمات (س) فى جماعها بكلمتين عامتين هى عمار هذا الكون والسمو به أو الاصلاح من شأنه فى أى جهة من جهات العالم ·

لذلك نعود للمثل الأول فالمزارع يصلح الارض ويجعلها جنة ليس ليكسب منها وانما هدفه الأسمى التعمير والاصلاح ·

والمهندس يبنى الكبارى ويمد الكهرباء لا ليفخر بها لنفسه وانما لعمار طرق المواصلات والاصلاح من شأنها ·

والمعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان ولايتقدمان فى الحضارة العلمية الا اذا توافرا على عملهما ·

وأى رجل يتجه نحو الخير والعمل الاجتماعى بل والانسانى يكون رجلا مصلحا . وأى فنان يقصد الجمال فى فنه والكمال يكون أيضـا مصلحا .

وعلى ذلك يقوم الأنبياء والمصلحون فى هذا العالم كل فى شـأنه وكل فى اصلاحه يؤدى رسالة الحياة .

محمد ناجى
رئيس الجمعيـة الثقافيـة
لقاعة الدكتور ابراهيم ناجى

رسالة الحياة

هل نتحدث عن الحياة ورسالتها أم عن الحياة ورسالة أبنائها ؟ ان كان الأول فنحن أمام حديث بيولوجى عام ·

نحن أمام الوجود وأسراره ، أمام ميلاده ونهايته ·

أمام السؤال المحير : كيف جاءت الحياة ولم ؟

وأمام سؤال محير آخر : هل الحياة جاءت صدفة أم هى من عمل عاقل مبصر مدبر ؟

وسؤال آخر هل الحياة على هذه الأرض حياة خاصة بأهل هـذه الأرض أم هى جزء من نظام عام ، وبعض من كل ؟

نتحدث عن القسم الأول من موضـوعنا : أى الحيـاة وطبيعتها ومنشؤها ، فلا شك أننا اذا فهمنا شيئا ولو قليـلا من ذلك اللغز الكبير الخفى ، أمكننا أن نجيب فى شيء من اليقين عن رسالة أبنائها ·

اذا أقررنا نظرية داروين من حيث آليتها وميكانيكيتها اعتقدنا أن الحياة « ترس » ساعة أدارتها يد ، ثم تركتها بشأنها دائرة أبدا ·· وتتلخص هذه النظرية فى أن الحياة أسباب ومسببات وضرورات ·

ولكن برجسون الفيلسوف الفرنسى الشهير ، تتلمذ أولا على داروين ، ثم ثار على عرشه وزعزعه . وكانت ثورته بالاخص على هذه الآلية التى بنيت عليها الحياة ، وأخذ يدلل فى قوة ومنطق وبيان قويم ، على أن وراء الحياة « وثبة » تدفعها لهدف بعينه وهو الكمال . فمن هنا يلتقى هدف داروين وهدف برجسون ، ألا وهو « الكمال » فالحياة تنتخب الأصلح وتدفع الأنسب الى الامام ، وتطوى الضعيف وتهدم المتخاذل المزعزع .. ولكن كلمة « انتخاب » اذا تدبرناها ، عرفنا أن هذا لا يمكن أن يحدث جزافا .. والا فأى قوة آلية يمكنها أن تميز بين الاصلح وغير الاصلح وبين الاحسن والاسوأ وبين الاقوى والأضعف ؟؟

فهذه القوة العاقلة المنتخبة ، اذن تعنى بالحياة لأنها تسير بها من حسن لأحسن ، وتتخطى بها عقبة بعد عقبة ، وتساعدها على النمو باطراد .

فهى اذن قد كفلت لها أسباب البقاء ، والا فما معنى المحافظة على شىء زائل ...

فالمسألة ليست اذن مجرد خلق ، ولا مجرد شعلة لمعت اعتباطا ! والا أنهار « المخلوق » ابن الصدفة وخبت الشعلة وليدة الأقدار ! ولكن الذهن المدبر الذى خلق هذه الحياة ، تفنن فى الطرق التى تكفل استمرار الحياة ، والتى تضمن لها البقاء ..

فرسالة الحياة اذن استمرار الحياة .

وقد ضمن للحياة أن تستمر شيئان :

(١) قطبها ومحورها وهو الجنس .

(٢) ضدها ومفنيها وهو الموت .

أما أن يكون الجنس محورها وعمادها وضامن استمرارها ، فليس بعجيب • فقد تفننت الطبيعة فى ذلك تفننا ما عليه من مزيد •• والمطلع على كتب علم الحياة ، يرى كيف تتهافت المخلوقات البدائية على التناسل تهافتا جنونيا • ونحن اليوم وان تغيرت صور الحياة وأوضاعها ، لا نزال نؤمن أن الحياة تقوم على نوعين من الحاجة ، الحاجة الى الطعام ، والحاجة الى الجنس ••

أما تحصين الحياة بضدها وهو الموت فهذا هو المعجزة التى مابعدها معجزة للتدليل على أن هذا الخلق وليد قوة خارقة فان الموت يمنع الحياة من التكاثر المطلق الذى يؤدى الى افنائها بتطاحن أبنائها وتقاتلهم على الحطام • وبذلك يصونها ••

والثانى أن تحديد دورة الحياة بحتمية الموت ، هو السبب فى الاختراعات بأنواعها وفى الاتيان بأروع الأعمال فى تلك الحقبة الصغيرة من عمر الزمن وفى الجرى وراء الرزق ، وفى طلب النسل أى فى كل ما هو قيم ونافع وجميل • يمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة ، فالحياة تسعى الى البقاء ، وتهدف للكمال **فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال ••**

وحين أقول « أن يتعاونوا » أعنى كلمة التعاون بأوسع معانيها • رسالة الحياة الكبرى هى فى هذا التعاضد والتكاتف لبلوغ الغاية •

أن المجهود الفردى مهما عظم لا يقيم الا حجرا واحدا فى البناء الضخم ، ولكن أبناء الحياة متكاتفين يمكن أن يبتنوا كل يوم هرما خالدا •••

ان العمل من جانب واحد ، يخل الميزان ويهوى بكفة منه ، على حساب الأخرى ··· فاستقرار هذا « الميزان » هو الغاية التى يجب أن تنشدها حيثما التفتنا ···

فاذا نظرنا الى علاقة الفرد بباقى الأفراد علمنا قيمة هذا التوازن فى العلاقات الآدمية ·

واذا نظرنا لداخل النفس وجدنا أن سكنة النفس وصلاحيتها تتوقفان على توازن القوى الداخلية ، وفى المجموع ، يتضح لنا أهمية التوازن الاقتصادى ، فهذا هو أسس الرخاء وأصل الأمن ، ومنشأ الحضارات الزاهية ولا سبيل اليه الا بتكاتف الأفراد معا على استقرار الميزان ·

تلك رسالة الحياة ·

رسالة الحيـــاة

رسالة الأدب

اذا رجعنا الى اللغات القديمة ، وجدنا أن كلمة أدب مشتقة من أدب المحرفة الى آدم أى الانسان ، فتكون رسالة الأدب ، رسالة الانسان وهذا معنى فى منتهى الطرافة فانه يحدد فى الحال رسالة الأدب حين يجعلها مسألة انسانية محضة :

فاذا رجعنا الى هذه الكلمة فى الاسلام وجدناها ترد بمعنيين: الأول بمعنى التهذيب « أدبنى ربى فأحسن تهذيبى » والثانى بمعنى الدعوة « هذا القرآن مأدبة الناس فى الأرض » والأصح أن هـذه الدعوة ، دعوة الناس الى التلاقى ، اما على مأدبة الطعام ، واما الى غرض خلقى نبيل ، وهذا ما يدعو اليه الحديث الآخر بلا جدال . أى أن القرآن يجمع الناس على مأدبة الخلق والحق .

على أن هذه « الدعوة » امتد ظلها ففقدت التركيز والتحـديد ، فصارت دعوة الىالمعارف عامة ، بصفتها وسيلة من وسائلالتهذيب. حتى صارت المعلومات الطبية أدبا ، والمعلومات الفقهيـة أدبا ... (literature) ، ولكن العرب قد سبقوا غـيرهم فى هذا ، سـارعوا فحددوا موقفهم من كلمة الأدب ، فقسموا الى أدب النفس (التهذيب) وأدب الدرس (المعرفة) فاذا تركنا أدب النفس جانبا ، والتفتنا الى أدب الدرس الذى أخذ بتطور العلوم والمعارف والثقافات يطغى على النصف الأول لمعنى كلمة الأدب حتى كاد أن يمحوها من الاذهان..

وجدنا سؤالا واحدا يصاحب هذا الظل الممتد ، وهو هذا : هل النثر والشعر والتاريخ جميعا تستحق أن تسمى أدبا ؟ بالطبع كلا · يجب أن يقتصر الأدب على لون خاص ، ذلك هو المأثور منه ، بعبارة أخرى الذى له طابع البقاء permanence وماذا نسمى ذلك الأدب الخالد ؟ نسميه الأدب الرفيع، ويمكن أن ينضم تحت لواء ذلك الأدب الرفيع الآثار الباقية من الموسيقى والغناء والعمارة ، ما دامت هذه كلها من أصول واحدة ، ولا تختلف عن الأدب البيانى الا فى كيفية التعبير ، وهذا « الأدب الرفيع » هو بعينه ما أسماه أهل الغرب « الفن » ، وهى كلمة حديثة جدا فى اللغة العربية ، وهى فى القاموس تعنى الأسلوب أو الطريقة أو الاتقان أو التنويع ، والفنان هو حمار الوحش لانه يجيد فنون العدو ، والمفن هو البارع الكثير الحيل ·

وهنا يتناول أهل الغرب مسألة الأدب من حيث كونها « فن » فيقولون ان رسالة الأدب كرسالة الفن « البحث عن الجمال » ··

فالأدب على ذلك ، هو الفرع من الفن الذى يصل بنا عبر قنطرة الكلمة الى حيث نرى ونؤمن بالجمال · ومن هنا يحسن أن نعرف الأدب تعريفا قويا ذا شعبتين فهو من ناحية صلة بين الواقع والخيال ، ويمكن للاثنين أن يلتقيا فى المعنى اذا اعتبرنا الطبيعة فى نفسها حقيقة جافة تحتاج الى مترجم وشارح ومتخيل هو الانسان·

ولكن : هل كل انسان يستطيع أن يكون صلة بين الطرفين ؟ أين هو الذى يحسن الوساطة ويجيد النقل والترجمة والشرح والتفسير والاخراج ، وأين هو الذى يجيد التوصيل ، مضافا اليه شعوره الذاتى ، وانفعاله أمام التجربة ، واحساسه بالجمال المنطوى كما هو بعصبه ولحمه ودمه ؟ يا عجبا ! وهل هذه الطبيعة محتاجة الى شرح ؟ الجبل ، السماء ، الصحراء ! أجل ! ان الأديب هو الذى يخلع على

هذه وتلك الحركة والحيوية ويلبسها رداء الخيال ، ويغمرها بالعاطفة فلو كان الكلام جميلا بذاته ما كنا فى حاجة الى الغناء ولو كان المشى جميلا بذاته ما كنا فى حاجة الى الرقص ولو كانت الطبيعة جميلة بذاتها لاكتفينا بنقلها بالفوتوغرافيا !

ولو كان فى تساقط المطر لحون كاملة ، ولو كان فى همس النسيم نغم تام ، لما احتجنا الى الموسيقى ! أكرر فأقول أن الفنان يشيع فى هذه العناصر الطبيعية العاطفة والخيال والحركة والحيوية ويغمرها بالألوان ، أو يسبغ عليها عطورا خاصة ، وكل الفنون مشتركة الأصول فى هذا فنحن نقول بيت الشعر والوان الموسيقى، وموسيقى الألوان ، ثم نحن فى نفس الوقت نجمع الشعر الى الموسيقى الى الرقص لنجمع العاطفة الى الفكرة الى الحركة الى الخيال الى الحياة ..

أما العاطفة فهى الوقود الذى يغمر العمل بالضوء ، فهى الاشراق المنبعث من الفن . أما الفكرة فهى عمل العقل أو الصنعة ، وأما الحركة والخيال فهما صفتان من صفات الحياة ، ومنها يمكن أن يعرف الأدب بأنه « التصوير الخيالى لحقائق الحياة » .. أو « المحاكاة الخيالية لحقائق الحياة » .

ولما كان من آيات الحياة التكرار والعودة – فان القلب يكرر نبضاته ، والقدم تكرر خطوها ، والمواسم تتعاقب ، والطيور تهجر ثم تعود ، فاننا نجد فى طبيعة الفن مهما اختلفت أنواعه ، الخطوات المعادة والنماذج المتكررة واللحن المتجدد ، والخطوط المتساوقة .. هذا « الايقاع » rythm هو المخدر الأول الذى نامت عليه أعصابنا ونحن فى المهد اذ تغنينا أمهاتنا .

وهو هو بنفسه الذى يأسرنا ونحن كبار فيخدر حواسنا فنستسلم

للشاعر أو الموسيقى أو الرسام لنتركه يتصرف بنا كما يشاء بعد هذا المخدر الطبيعى الأصيل .

ومن هنا ندرك لماذا قد نتأثر بالشعر حين يلقى ، فى غير لغتنا ، وبالموسيقى ونحن لا نلم بأصولها !!

الوظيفة الأولى للأدب أن يكون مصورا حقيقيا خياليا ، أى بعبارة أن يعبر عن الواقع ، بالمجنح الطائر بواسطة العاطفة والفكر .

أما الوظيفة الثانية فهى أن يمد الأديب يده الى دولاب الحياة الدائر ، فيوقفه ، بخيالاته وتأملاته اذا شئت .. ليقتطع منه منظرا أو فكرة أو حادثة ، يستخلصها ليختزنها فى عقله الباطن ليخرجها يوما ما الى العالم مضيفا بذلك للكواكب كوكبا جديدا الى سماء الخلود au ciel de fixes

ولكن من هذا الأديب الذى يستطيع أن يمد يده الى الزمن الدائر فيقتطع من عجلته شيئا ثابتا خالدا ؟ ثم من هو ذلك الذى يستطيع أن يميز فى الفلك الدائر السريع ما هو جدير بالاستبقاء ؟

الصفة الأولى فى ذلك الأديب هو ما نسميه تجاوزا شدة الحساسية ، ويسميه علماء النفس التماس الواعى مع الحياة والأحياء والتماس الواعى معناه أن مهمازا يشك قلبه ويفتح عينه ويلهب حسه ويوقظ روحه ، فاذا كانت الحياة هى « الوادى الذى تنضج فيه الأرواح » على رأى كيتس فانها انما تنضج عن طريق الألم وعن طريق الدموع ، عن طريق الشوك ، عن طريق التماس الواعى الذى أشرت اليه . على أن الأديب الذى أشير اليه يمتاز بالبصر ، بل بالبصيرة ، ويسمى بالفرنسية un visionaire أى صاحب

رؤيا ، وهى كلمة ملائمة جدا . ومعناها أنه رجل يبصر وراء الأشياء حقائقها البعيدة أو يراها مكبرة أو يراها مغمورة بأضواء خاصة ، أو بعبارة أخرى ذات رموز ومعان وايماءات وأخيلة تهيب به وتدعوه . هذه الدعوة هى التى أشرت اليها فى أول الحديث ، والتى هى العنصر الأول فى الأدب لفظا ومعنى .

أما استجابة الأديب على هذه الدعوى فكيف تكون ، تكون بصرخة ذات لون من ثلاثة ... دهشة أو دمعة أو ضحكة ..

فنحن نرى اذن أن هناك بصيرة ، فالتماس واع ، فنداء فصرخة ، فاستجابة وهذه الاستجابة هى ما نسميه « اللفتة الذهنية » ، وهى كلمة ملائمة جدا ، ولو حللناها لوجدناها تعنى أن العاطفة تلجأ الى الفكر مستعينة به على كيفية الاستجابة . كيفية الاستجابة أو بعبارة أخرى « عملية الأدب » مسألة جديرة بالنظر لأنها نهاية المرحلة وثمرة المجهود ، ومما هو واضح أن هاته الرواية من بصيرة الى صرخة الى التفاتة ذهنية ، والتى يمكن أن نطلق عليها اللحظة الانفعالية هى فى الواقع مشروع رواية تتطلب الاخراج والظهور على المسرح ، رواية غايتها الوضوح ، لتجد سبيلا الى الاقناع والمشاركة والتمتع بالتلاقى مع الآخرين فى صعيد وجدانى واحد .

فمن ثم يتضح لنا أن عملية الأدب هى « التأثر بتجربة ما ، تأثرا خاصا والامتلاء بها امتلاءا عنيفا يلح الحاحا باطنيا فى ابراز هذه التجربة مغمورة بالضوء الذى أبصرته فيه جالسة على عرش من الشعور الذى اكتشفها متكلمة بلغة خاصة تحمل تفسيرا خاصا ، وشرحا خاصا ، وسبيلا للاقناع خاصا يجعل المشارك فى التجربة يرى ويفهم ويؤمن بالجمال الكامن خلف كل شىء فى الوجود من الصغير الى الكبير » ..

فالأدب اذن ومضة من ومضات البصيرة تدعو الى التعبير ، ورسالته السمو بالنفس عن طريق الجمال ..

فجوهر الأدب اذن فى التعبير ، فكيف نعبر تعبيرا تكون آيته تادية رسالة الجمال ؟

يمكن أن نلخص السلسلة وحلقاتها كالآتى تجربة ـ بصر ـ بصيرة ـ صرخة ـ استجابة ـ اختزان فى العقل الباطن ، ترجمة تفسير ترتيب اخراج توصيل ——— ويمكن اختصارها فى **تجربة ـ تعبير ـ توصيل .**

فلننظر الآن فى التجربة الأدبية . التجربة اما أن تكون حادثة أو فكرة أو منظرا .. ولكنها على كل حال ، تجربة غنية بالأضواء والصور والرموز ، تجربة متعددة الأجزاء ، كل جزء له قيمته من حيث أنه وحدة فى كل متناسق ، وزيادة على ذلك فعاطفته التى تثير التجربة عاطفة من لون خاص ، فالعاطفة تتميز بالصدق الذى هو اقتناع قلبى مرتفع على قاعدة من « الحماسة القوية » فليست العاطفة الصادقة اذن انفعالا متصنعا ولا نواحا ولا ندبا ولا عويلا ، بل هى نوع من الانفعال المكظوم ، نوع من الألم الجبار الذى أمكن للنفس القوية مهادنته وحبسه فى جو من الهدوء ومن ثم تكون نوعا لا يستثير الألم والعذاب وانما تكون ضربا من العزاء والشقاء ، ولقد قال كيتس معاتبا نفسه وموضحا معنى « العاطفة العبقرية » من أنت ؟ أنت حالم تعيش فى حمى ، انك تثير آلام الناس وسخطهم ولكنك ليس لديك البلسم الذى تلقيه فوق متاعبهم وآلامهم ..

ما أضيعك » !

هذه العاطفة العميقة هى بمثابة اللهب الذى يضفى على التجربة

الظلال والأضواء والأصباغ ، وهو الذى يقسمها أجزاء ، ثم هو الذى يؤلف بين أشتاتها ، وهو كذلك الذى يخلع على التجربة النبض والحياة ٠٠ وقد تقول بالأصح أن العاطفة العميقة تثير الخيال الذى هو فى الواقع اليد الساحرة التى تقوم بكل هذا ٠

أما الشرح السيكولوجى لهذا ، فهو أدق وأكثر توضيحا ، وخلاصته أنا نعيش فى ثلاثة عوالم ، العالم الخارجى ، والعالم الشعورى ، والعالم اللاشعورى ، أى عالم الحقيقة وعالم العاطفة وعالم الخيال ٠٠ وهذه العوالم فى دنيانا العملية تكاد تكون منفصلة تماما ، أو على الأقل بينها اتصال غير كامل ، أما العالم الخارجى فمنه المادة التى تعطينا التجربة ، ففى لحظة الانفعال تنزاح الفواصل بين عالم المادة ، وعالم العاطفة ، أى ، يزول ما بين الوعى ، وغير الوعى ٠ ففى هذه اللحظة المتاحة تستوعب التجربة صورة موحدة ، وانموذجا كاملا ، ولا تلتقط مهلهلة الأجزاء مبعثرة الأشلاء ، ولا مبتورة التفاصيل فاذا انزاحت الفواصل بين الشعور واللاشعور ، فان اللحظة الانفعالية تصير حالة انفعالية ممتدة الزمن وزيادة على ذلك فان الانفعال يستوعب التجربة كخليط معقد الجوانب ، وهذا ما يجعله مثيرا ومشتعلا ويجعل الأديب متوثبا لاستيعاب الانفعال والسيطرة عليه ، فهنا يختلط الواعى بالباطن ، فيطفو الأخير بأحلامه وضبابه وخيالاته فى الشعور ، وفى هاته اللحظة نحس بالحاجة الى التعبير ولكن الشعور تحليلى فى نزعته ، بعكس اللاشعور فهو تركيبى ، فعلى ذلك يحيل الأول التجربة الى الثانى الذى يعيد تركيبها ٠ على أن الثانى اذ يعيدها ، انما يعيدها ومعها فروق وتدرجات وألوان وأصباغ وأضواء وظلال كالآفاق التى تبدو فى الحلم سواء بسواء ، وذلك لأن الباطن طبقات وامكانيات ، وهو يعطى بالتدريج ويغرى باقتحامات جديدة ، فالتجسد الأول للتجربة ـ أى التجسد الشعورى تضخم متعب قد يؤدى الى الانتحار أو الجنون ٠

أما التجسد الثاني فهو مخفف تدريجي يطفو فى وسط الألوان والأضواء ، وفيه شعور كذلك بالتحرر من قيود العرف ، ولذلك يكون عمله فى الأغلب فى هدوء الليل وبعيدا عن الناس · على أن هذا التحرر ، أو بالأصح اختلاط الواعى بالباطن واتفاقهما على كيفية التعبير يصاحبه امتزاج المدركات الحسية جميعها ، من حس الى فكرة الى عاطفة ، ففى عالم الأدب يمتزج البصر بالوجدان بالفكرة ، فتقول : عينان فرحتان ··· امتزاج حس ووجدان ! والنحت حسى لمسى فقط ، والموسيقى سمعى عاطفى ـ ولا يستثار الاحساس بالجمال الا بالتئام الوجدان مع المدركات الأخرى ·

يتضح من هذا أن العمل الفنى ، مدين فى جزء كبير منه للوعى والشعور ، ولذلك يتبين أن العبقرية والقول بالسليقة وحدها لانتاج العمل العبقرى ، قول على غير أساس ·

ويتضح من هذا التحرر السيكولوجى أن المسألة محاولة ازالة فواصل ، فمن الباطن الواعى الى الخارج وبالعكس ، معنى ذلك أنها عملية « افضاء » أى توصيل ـ وبعبارة أخرى الخروج عما هو شخصى الى ما هو انسانى وهذا هو غرض الأديب ورسالته ·· ولكن ما دام اللفظ هو الوسيلة لهذا الافضاء فما مركزه فى هذه الحلقة : اللفظ عليه أن يؤدى الصورة مستعينا بالخيال والزمن والموسيقى ·

أما الموسيقى ، فقد سبق أن قلنا أنها العصا السحرية ، والوسيلة للاقناع القلبى الذى تحدثت عنه ·

وليس أبدع من لغتنا العربية فى التحدث عن اللفظ الفنى : فيقال مثلا أن المجاز « هو تجاوز اللفظ الى ما لم يقصد به القاموس » ·

ثم تقول كتب البلاغة أن الكتابة لون من ألوان التشبيه المركز ، منه التلويح والايماء والرمز ، حسب ظهور العلاقة أو النسبة او اختفائهما ٠

أى أن العرب أوصوا - للوصول الى قمة البلاغة باستعمال روح اللفظ ، لا ذات اللفظ ، فسبقوا المدارس جميعها ، من رمزية وغير رمزية مما سمعنا عنه فى كتب الغرب ٠ هنا أقف لأتحدث عن « روح اللفظ » أن اللفظ المباشر قد يكون جميلا فاتنا ، رائع الجرس متسق الرنين ٠٠ كما نرى هذا على أحسنه عند البحترى فى أدبنا وفى سوينبرن عند الانجليز - فتكون الموسيقى رائعة وآسرة، ولكنى أحذركم من هذه الموسيقى التى تعتمد على اللفظة المباشرة ، فانها خداعة ، تستولى علينا كأننا عدنا أطفالا فى المهد ٠

أما استعمال « روح اللفظ » أو استعمال اللفظ بموجباته وظلاله وتأثيراته ، فهذا هو الذى يحدث ما يسمى الموسيقى الباطنية ، هذه الموسيقى - هذا الهمس الداخلى - هذا الايحاء البليغ ، هو سر الرمزية وقوتها وثباتها ، والأمل فى أن تصير المدرسة الوحيدة الباقية فى المستقبل ٠

انى أتحدث عن الأدب عامة بقسميه من نثر ونظم ، ولكنى أقول أن هذه الصفات التى شرحتها تنطبق بالأكثر على الشعر : الذى هو أعظم الكلام فى أعظم مواضعه ٠٠٠

أما النثر فقد يبلغ مبلغا كبيرا من الاجادة ، ولكنه سيظل دائما معتمدا على المنطق ، والقياس ، والوضوح والهدوء ، والاتزان ، وسيخلو من مميزات الشعر كالعاطفة المحضة ، والغموض الجميل ، والحماسة المركزة ، والايقاع المرقص ، واللفظ المجنح الموحى ٠

(٠٠٠٠)

هـذا هو السحر !

غاية الفن تعميق الاحساس وهز المشاعر فيعمق الاحساس ويهتز الشعور حتى يتحولا الى رجفة بدنية يعرفها كل انسان أحس بالطرب أو شجاه الحزن · كأن أعماقا ساكنة تحركت ، كأننا شعرنا بشيء يحررنا من أعماق الواقع وينقلنا لعالم غريب علينا ·

ويصل الفنان الى غرضه عادة عن طريق « شكل » من الأشكال خطوطا أو أصواتا أو كلمات ذات ترتيب خاص يتجاوب مع آخر خفى فى أعماقنا · ويقوم الشعر كما يقوم النثر على « الكلمة » ، فما هى الكلمة ؟

انها معنى وصوت ، منطق وموسيقى ، تعبير له جرس ، كلام له رنين ، هى « المادة » التى تكسو خواطر الفنان · ولكن العمل الأصيل للكلمة هو الوقع المنطقى ، وهذا هو النثر ، حتى أن كلاتن بروك يقول النثر « هو العدل » أى الافضاء بحق وصدق · ولكن هل تخلو كلمة من لونها العاطفى ؟ أى من ايقاعها الخاص ؟ أى من رنينها وموسيقاها ؟

ان أعاظم الكتاب المتفوقين فى النثر استغلوا هذه الميزات فى الكلمة كل الاستغلال · ولكن هذا النثر على جماله وعلوه ، احتفظ بأنه نثر ، ولم يصل لمرتبة الشعر ·

لم هذا ؟

ان الكلمة عند الشاعر ليست حبرا على ورق · ولا مجرد لفظة فى فم · انما هى جنين يتكون فى العقل الباطن ، ينمو حتى يصير مخلوقا عضويا كاملا · مخلوقا مكونا من أفكار وآلام وآمال وأحلام · ان كلمة الشاعر حلم حى مجسم نابض يضم فى ثناياه عالما حافلا بالذكريات والصور والخيالات · ولان هذا الجنين نما فى أعماق الفكر وتكون فى الدم والاعصاب فان الشاعر يهمه أن تراه جيدا وتتأمله جيدا ، وتفهمه جيدا ، وتهتم به جيدا · ووسائله فى ذلك وسائل الساحر والمنوم فهو يختار لك اللفظ العجيب الذى يذهلك ويسحر حواسك ويحيرك · ولذلك فان كلمة الشاعر الكبير تنبع من الحس وتتصل بالحس ، فهى تثير نظرك أو شمك أو لمسك · فترى للكلمة لونا ، وتشم لها عبيرا ، وتكاد تلمسها بيديك ، ولذلك قيل ان الشاعر يلون صوت الكلمة · وما التشبيه وما الاستعارة الا اقتران الكلمة بشىء حسى يلفت حواسك اليه · فالقمر ليس هو صفحة بيضاء عادية ، بل زورق سابح فى عباب السماء ، والربيع ليس مجرد لون أخضر ، بل بساط سندسى وهكذا ··

هذا هو السحر ··

أما التنويم فباستغلال الموسيقى أكبر استغلال ·

اما بترتيب الكلمات والأحرف ، واما بالايقاع · ثم يلجأ الى التداعى ، لا ربط كلمة بكلمة ، بل ربط كلمة بعاطفة ، بل منظر حسى يثيرك ويركز اهتمامك عليه وفيه ··

ويخيل لى أنه كانت فى الأزل ألحان · وكانت خطوطا وان سماعها أو رؤيتها الآن تحرك صدى بعيدا ساكنا فى أعماقنا من الأبد ،

بدليل ان القطعة الموسيقية الرائعة أو القطعة الشعرية الخالدة تحدث أثرها وتوحى بعظمتها دون الحاجة الى نوع خاص من الثقافة أو العلم أو الادراك ... هناك ذلك التجاوب الخفى المجهول وهو يكفى .

على أن كل فن يستعمل « المـادة » التى يشرق من خلالها .

ومن الفن ما هو فراغى ، ومنها ما هو زمنى . فالفراغى ساكن يسجل ما هو كائن وثابت فى لحظة ما . ومن الادب زمنى فراغى يتحرك فى الزمن والفراغ مسجلا ما هو كائن وما سيكون . وهذا سر قوته . وهو الفن الوحيد الذى لا يعبأ كثيرا « بالمـادة » التى تكسوه أعنى أنه يتخطى حدود الوظيفة العملية المرسومة للكلمة الى ما هو أبعد من نطاق مهمتها المعروفة . أعنى الى عالم العاطفة والخيال .

فالأديب لا يتكلم عن « الشىء » وانمـا « الى » عواطفنا فيما يختص بهذا الشىء ، وهو لا يخاطبنا بالكلمة ذاتها ، بل بالظـلال المحيطـة بالكلمة . بالأجنحة المركبة فى الكلمة ، والتى يراها هو وحده ويعرف استعمالها هو وحده . هذه الظلال ـ هذه الاجنحة ـ التى ترتفـع بالكلمة من الارض وتسمو بها . والفنان لا يهمه أن تصـدق الكلمة بقدر ما يهمه أن تكون قوية . القوة غايته وطلبته . وما هى هـذه الظلال ؟ انها تلك السواعد السيكولوجية التى بواسطتها « ينبش » الفنان ظواهر الأمور ليستنبط أعماقها . وهى بعينها الأيدى التى بواسطتها يجلو الصدأ من المعانى التافهة والرواسب المتكاثفة ويبدى لنا الجوانب اللامعة المشرقة فى الحياة والاحياء .

قال بوب يصف الشاعر :

« هو ذلك الذى يستطيع أن يحشد فى صدرى ألف ألم ويشعرنى بكل خالجة فى صدره .

يشعرنى بالغضب والرضى والاشفاق
يمزق قلبى رعبا . يلقينى على الثرى .
يقذف بى فى الهواء ..
يحملنى الى طيبة .. الى أثينا
متى شاء وحيث ، وكيفما شاء »

رسالة الفلسفة

ساعة مع سقراط

لم يعن سقراط بتدوين آثاره الفكرية بين دفتى كتاب ٠ لأن عصره لم يكن عصر كتب بل عصر مسرحيات ، ولأن انشغال العباقرة بالقيام برسالتهم ، قد يصرفهم عن تدوين مافى سجل حياتهم من أعمال ٠ ولأن للعباقرة شخصيات قد تفوق كل ما يكتب عنها ، بل ان القلم ليخجل عندما يجد نفسه عاجزا عن وصفها ، قاصرا عن الاحاطة بذلك الشىء المجهول الذى يكون الشخصية العبقرية ٠ ولكننا لحسن الحظ نجد فى كل زمان من المؤمنين بهذه العبقريات ، من يلذ لهم أن يعيشوا فى ظلالها ليسجلوا كل كبيرة وصغيرة فيها ٠ ولقد ذكر المؤرخون شبها كبيرا بين سقراط الاثينى وجونسون الانجليزى ، فقد وجد سقراط فى تلميذه أفلاطون شارحا أمينا ومريدا ذكيا ، كما وجد جونسون فى صديقه بوزويل ظلا مخلصا حريصا كل الحرص على تدوين كل شاردة وواردة فى حياة صاحبه وأستاذه ٠ ولولا ذلك اندثرت معالم سير العظماء ، وضاعت التفاصيل الدقيقة التى تدل أبلغ الدلالة على عبقرياتهم ، والواقع أن هذه التفاصيل اليومية لأساليب العيش قد تكون رائقة فاتنة فى اصالتها أو شذوذها ٠

ولقد يكون من الطريف ان يتناول أكثر من واحد حياة العبقرى ، فيصورونه من زوايا مختلفة ٠ وهذا بالضبط ما حدث لسقراط ، فقد تناوله أفلاطون تناولا أدبيا وفلسفيا ، وقد تناوله ارستوفان فى كوميدية السحب تناولا يدور حول شخصيته التعليمية ،

وتنـاوله زينوفون فى مذكراته ، تنـاول المحـامى الذى يدافع عن موكله • أما أفلاطون فقد جعل من محاوراته التى تدور حول سقراط جدلا مثاليا ، يرفع سقراط الى الذروة من الحكمة والتفكير • حتى اتهم أفلاطون بأنه يلبس قناع سقراط ، وان هذه الروائع التى تتسلسل فى المحاورات انمـا هى أفكار أفلاطون • لا أفكار سقراط ، أما كوميدية السحب عند ارستوفان فقد حضرها سقراط بنفسه ، وكان قد قارب سن الخمسين • فلم يضايقه أن يتندر به ارستوفان ، وتعمد أن يقف فى مقصورته ليلة التمثيل ، ليرى الناس حقيقة ذلك الذى تنـدر به ارستوفان على المسرح • ولقد ظل صديقا لأرستوفان وكانا يشاهدان معا فى ألفة ووئام •

على أن هذه المسرحية كان لها أثر بالغ فى أيام سقراط الأخيرة ، فقد رسب فى الأذهان عامة وفى عقول المحكمين خاصة فكرة خاطئـة مشوهة عن سقراط وتعاليمه أساسها هذه المسرحية التى لم يقصد بها ارستوفان غير التندر والفكاهة •

أما زينوفون فقد كانت رسالته التى يدافع بها عن سقراط دفاعا يجرده به من كل عبقرية وأصالة ويضعه فى مصاف الرجال العـاديين الطيبين الذين يعيشون ويموتون وهم لم يأتوا ، ولم يحاولوا أن يجيئوا بجديد ، فيتعين اذن على الباحث أن يقرأ كل هـذا معا : محـاورات أفلاطون ، ومذكرات زينوفون ، ومسرحية السحب لأرسـتوفان • وذلك لأن أفلاطون وصاحبه لم يعاشرا سقراط الا فى المرحلة الأخيرة من حياته ، بينما كانت معرفة أرستوفان به معرفة تتناول شطرا من حياته لم يره الأولان وانمـا سمعا به •

على أننا لا نشـك فى أن محاورات أفلاطون هى أهم مراجعنـا عن سقراط • واتهام أفلاطون بأنه هو كاتبها اذ تخيلهـا غير قائم على

حقيقته . فان الأجزاء الأولى من المحاورات يتوسطها سقراط ، والتى تليها لا نراه - أى سقراط وانما نسمع عنه ، وفى الأخيرة ، لا نسمع أفلاطون يتكلم . فأفلاطون اذن لم يكن فى حاجة الى التخفى وراء قناع غيره .

نحن لا نعرف بالضبط متى ولد سقراط ، ولكننا نعرف تاريخ المحاكمة الشهيرة ، ونعرف من ذلك أن سقراط كان اذ ذاك فى السبعين من عمره تقريبا . فنستطيع أن نستنتج أنه ولد فى أتينا سنة ٤٦٩ قبل الميلاد . ويمكن تقسيم حياته الى مراحل ثلاثة من ميلاده حتى الحرب بين أثينا واسبارطة ، وفترة الحرب ، ثم أخيرا ، بعد هذه الحرب حتى محاكمته ووفاته . ويمكن أن نسمى المرحلة الأولى مرحلة التعلم والثانية مرحلة الوحى والثالثة مرحلة الرسالة ، ولما كانت حياة العظيم وثيقة الصلة بما جرى فى وطنه ، فان المرحلة الأخيرة أهم المراحل فى رأينا ، لأن سقراط اشترك أثناءها اشتراكا فعليا فى شئون الشعب اليونانى وحكومته وسياسته ، وهذه هى المرحلة التى لازمه فيها أفلاطون ، وعنها وعنه كتب بيقين ووضوح وايمان . فى هاته المرحلة اختلط سقراط بالشعب ، وانتقد الحكومة حينا ، وانتصر لها حينا ، وخالفها حينا ، وتعرض لسخطها أخيرا ، ثم فى الحرب هو جندى من جنودها ، وهو فى السلم أول المدافعين عن قوانينها ، ولو كان فيها ما يمسه هو بسوء . ولقد عاش سقراط فى عهد بركليز العظيم حين كانت أتينا ملتقى الثقافات ، وحين كانت ملتقى المعارك العلمية والفلسفية بين الشرق والغرب وحين كانت الحكومة ديمقراطية تمثل الشعب تمثيلا صادقا ، وحين دارت الأيام بعد موت بركليز ، وانتهى الصراع بين سبارطة وأثينا بانهيار أثينا - ثم أخيرا شهد سقراط عودة الديمقراطية لتحاكمه وتحكم عليه بالموت فى كل عهد من هذه العهود كان لسقراط أثر ، ومما لا يقبل الجدل أنه كان وثيق الصلة بالدوائر المختلفة ، ومعروفا من جميع الطبقات ،

ولا جدال أنه أصاب شهرة واسعة من سن باكر اذ ليس من المعقول أن يجعله مؤلف مشهور مثل أرستوفان محورا لمسرحية من مسرحياته اذا لم يكن معروفا لأهل أثينا جميعا · ولقد دافع عن نفسه بأن ذكر أسماء شيوخ من شيوخ أثينا ـ عظماء وأثرياء ـ بينهم وبينه صلة وثيقة ومودة متينة منهم كريتياس عم أفلاطون . وكريتو الثرى المشهور · على أن أهم صلاته بالشباب ، التى أثرت فى محاكمته فيما بعد هى صلته التاريخية بالسبيادىز · كان هذا الشاب من أجمل وأنبل وأشجع شباب أثينا · ولا شك أن قراء التاريخ يذكرون كيف اتهم السبيادىز بالكفر والتندر بالديانة اليونانية ، وكيف قدم للمحاكمة فهرب الى أسبارطة وانضم الى جيوشها ، وكان السبب فى هزيمة أثينا ودارت الأيام فرجع الى وطنه ولكن وطنه جازاه أقسى الجزاء ، فختم أيامه فى النفى والتشريد· كانت الاشاعة التى تدور حول اسمى سقراط والسبيادىز توحى بأن العلاقة بينهما أكثر من علاقة أستاذ بتلميذ وأن ما بينهما تطور الى مسألة جنسية بحتة ، فاذا ما سمع بهذه الاشاعة أجاب ساخرا « حقيقة انى أستاذ فى فن الحب » ! ولكن الذين يعرفون استقامته الصارمة يدركون بعده التام عن الشهوات والصغائر ·

ولد سقراط من عائلة طيبة ويستدلون على ذلك من اسم أمه وأبيه فقد كانت للأسماء فى تلك العهود دلالة على المثبت والأرومة ، ولم يكن سقراط فقيرا ولا صعلوكا ،ولكنه اختار لنفسه التقشف والحرمان لأنه وجدهما سبيله الحقيقى الى الثراء النفسى ، وكان اسم سقراط مقيدا ضمن جنود الجيش ويجرى عليه كما للجنود دخل ثابت أما فى آخر أيامه فقد أدركه الفقر حقيقة ويظهر أن ذلك من الفقر العام الذى ضرب أطنابه فى أثينا · فى المرحلتين ، مرحلة الشباب والكهولة وعلينا أن نتحدث عن :

(١) شكله وزيه (٢) طباعه (٣) مدرسته (٤) ثقافات أثينا

وموقفه منها (٥) ديانته وديانة أثينا (٦) المعجزات والعلامات الخفية التي نسبت اليه ·

كان سقراط كبير الرأس كبير الأنف تترجرج مقلتاه ترجرج الزئبق وكان في مشيته مشية البطة · أما عن طباعه ، فأول ما يذكر انه كان دائب السخرية ، لا من الناس فقط بل من نفسه ، اذ كان يؤمن بأنه جاهل كباقي الناس ، ولكن الفرق بينه وبينهم أنه يبحث عن الحقيقة ولكنهم لا يبحثون وكان دأبه أن يعلم الناس كيف يعامل الواحد منهم غيره وكيف يعيش في الوسط الذي يحيا به ، ولم تكن له مدرسة خاصة ، فقد كان يسمي تلاميذه « الرفاق » ولا يتناول أجرا · وكان على زهده وتقشفه ، متين البناء قوى العضلات يجاري أصحابه أحيانا في الشراب ، ولكن الخمر لم تكن لتؤثر به مطلقا · ويمكن أن نلخصه في بضع كلمات : لقد كان طاغي العاطفة ، طاغي التفكير ، متصوفا ساخرا ، أما عن التصوف ، فقد كانت تعتريه نوبات ذهول وغيبوبة ، وكانت تظهر له علامات خفية نكاد نسميها هواتف ، وكانت لهذه العلامات صفات الانذار والتحذير · أما الغيبوبة فكانت تقصر أو تطول ، وقد استغرقت احدى نوباتها أربعا وعشرين ساعة · على أن هذه العلامات كانت تبدو له على غير انتظار فيقف مصغيا الى صوت بعيد ، وقد كان معتادا أن يطيع نواهي تلك الهواتف ، ولم يعصها الا مرة واحدة كانت السبب في الكوارث التي مرت به في أواخر أيامه · فقد حذرته هاته المواقف من الاندماج في السياسة ، والاشتراك في أعمال الحكام فلم يصغ اليها ، وكانت العاقبة وبالا ·

هل كانت لسقراط « ديانة » ؟ فمن الواضح أن عقلا كعقل سقراط لا يمكن أن يستسلم لأى عقيدة ـ دينية أو غير دينية ـ بدون مناقشة، فكان عليه أن يناقش كل شيء ، فلم تخل ديانة أثينا من نقاشه

العنيف ، وقد كانت المعتقدات السائدة فى أيامه ثلاثة (١) الاورفية وهذه مبنية على الاعتقاد بأن النفس الوهة منفية ، ومشتقة من ألوهة كبرى ، وأن هذه الروح أو الألوهة الصغرى منفية فى أجسادنا ، وعلينا أن نتعهدها بالتطهير والابتهال حتى تعود الى الأصل مطهرة صافية • ولكن كلمة « الروح » لم ترد على لسان الاورفيين وانما كان الأورفيون يسمونها psyche أو النفس ، ولم يكن لها صفة ، غير أنها الوهة مشتقة من ألوهة أعلى • وتتسم بالادراك والوعى بصفة عامة ادراكا واعيا مشتركا فى جميع الناس على السواء • على أن سقراط ـ على قبوله بمبادىء هذه الديانة ـ لم يعتنقها كما هى ، وخاصة لأنه أبصرها تضمحل وتستحيل الى حلقات « ذكر » وابتهالات • أما الديانة الثانية السائدة فى أثينا فقد كانت قائمة على الأساطير ، وأقوال الشعراء ، ويظهر أن سقراط أبدى رأيه علنا فى قيمة هذه الأساطير • ومن المهم أن نذكر أن من بين أسباب محاكمته « الكفر بهذه الديانة وبحثه عن أرباب جديدة » فلما ووجه بهذه التهمة لم يزد على أن يسأل بدوره « ومن هم أربابكم » ؟ فلم يردوا على سؤاله !

أما الديانة الثانية فالديانة العلمية الفلسفية ، وليس خافيا أن أول من بحث فى طبيعة الكون ووجود الخالق وفى علاقة المخلوق بالكون وخالقه هم فلاسفة اليونان من قبل سقراط وقد انقسموا مدرستين شرقية على سواحل آسيا الصغرى ، وغربية فى جنوب ايطاليا ، رقد كانت أثينا ميدان الصراع بينهما قرر الفلاسفة مبدئيا وبلا جدال أن للكون خالقا ، فخرجت هذه النقطة من دائرة النقاش ، ولكن بقى أن يبحث الفلاسفة فى كنه هذا الخالق • ثم عن علاقة المخلوق به ، ثم عن علاقة الكون بالاثنين • أما المدرسة الشرقية فكانت مدرسة موحدين ، غير أنهم قالوا أن النفس نفس أو هواء مشتق من هواء عام يعود بالموت الى أصله وزادوا على ذلك أن الكون اسطوانة مسطحة

محمولة على الهواء • وكان فى الغرب مدرستان : مدرسة فيثاغورث التى بنت بحثها على الرياضة وابتدعت أهمية الأرقام ، واكتشفت كروية الأرض ، وأنكرت أن تطفو على هواء ، لأنها معلقة فى الفضاء • وأما المدرسة الثانية فمدرسة أخرى تقول أن الخالق من نار وهواء وماء ، وهذه مدرسة امبودكليس •

كل هذه المذاهب ، لم تقنع سقراط ، وأن كانت قفزت بالعلم من الناحية الاسترولوجية الى الناحية البيولوجية ثم الى الناحية الرياضية غير أن اثنين فقط هما بارمينيدس وزينون هاجما هذه الترهات حول صفة الخالق ، ان هذا التقلب والتغير ليسا من صفات الخالق وأن الخالق يجب أن يكون « مفردا ثابتا مطلقا لا يتغير » •

ساعة مع أفلاطون

قبل أن نتحدث عن أفلاطون نود أن نعود بالقارىء مرة أخرى الى سقراط حتى يمكن لنا أن نلقى ضوءا جديدا على أفلاطون .
يمكننا أن نقسم حياة سقراط الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى ـ من مولده حتى قامت الحرب بين أثينا واسبارطة وجند فيها سقراط .

والمرحلة الثانية ـ فترة الحرب التى أنهكت أثينا وعصفت بقوتها وجرتها الى الاضمحلال .

ثم المرحلة الأخيرة ـ وهى مرحلة الرسالة ، أو المرحلة التى اشترك فيها اشتراكا فعليا فى أمور مواطنيه ، وهى ولا شك أهم هذه المراحل شأنا ...

المرحلة الاولى :
يهمنا فى هذه المرحلة آن نتكلم عن شكله وزيه ، طباعه ، وأخلاقه ، العلامات الخفية ، مدرسته ، ثقافات أثينا وموقفه منها ، ديانته وديانة أثينا .

أما شكله ، فقد كان كبير الرأس ، كبير الأنف ، تترجرج مقلتاه ترجرج الزئبق ، كما كان متين البناء ، قوى العضلات .

أما طباعه فى هذا العهد ، فتتلخص فى أنه كان يشعر بجهل الناس ، وبما فى نفوسهم من نقص ، ولذلك كان دأبه السخرية من جهلهم ، كما كان يسخر من نفسه ، ولم يكن فى هذا كاذبا ، بل كان يؤمن بأنه هو أيضا يبحث عن الحقيقة ، فهو اذن لا يفضلهم فى شىء غير فى أنه يبحث وهم لا يبحثون • وهذه تبين لنا أنه كان رجلا •

كان يعلم الناس كيف يعامل الفرد غيره ، وكيف يعيش فى الوسط الذى يحتويه ، ولذلك نتساءل •• هل كانت له مدرسة ••• ؟

لقد كانت له مدرسة من طراز خاص ، فقد كان يسمى تلاميذه رفاقا associates وكان لا يتقاضى أجرا ، وفى هذا تميز عن السوفسطائيين •

ولقد اتهم فى محاكمته بأنه كان مفسدا للشباب ، ولكنه دافع عن نفسه بأن ذكر شيوخا من شيوخ أثينا بين عظماء وأثرياء ، كانت بينه وبينهم صلة وثيقة ، على أن أهم صلاته بالشباب ، والتى أثرت فى محاكمته وأدت الى الحكم عليه ، هى صلته بالسبياديس وكان من أجمل شباب أثينا وألمعهم وأشجعهم ، وكانت الاشاعة التى تدور حول علاقته بسقراط أكثر من أن تكون علاقة بين أستاذ وتلميذ ، بل تخطتها الى مسألة جنسية بحتة • وكان سقراط اذا ما سئل عن ذلك أجاب ساخرا ، على طريقته ، اننى حقيقة أستاذ فى فن الحب ••• ولكن الذين عرفوا استقامته الصارمة كانوا يوقنون ببعده التام عن الشهوات والصغائر •

ويمكننا اذن أن نلخص شخصيته اذ ذاك ، بأنه كان رجلا طاغى العاطفة ، طاغى التفكير ، ساخرا ، متقشفا ، متصوفا ••

•• وماذا نعنى بالتصوف ••؟

نعنى بالتصوف ، أنه كانت تعتريه نوبات ذهول وغيبوبة ، وكانت تظهر له علامات خفية نكاد نسميها « هواتف » ، ولم تكن هذه الهواتف ايجابية ولا موجهة لناحية ما ، وانما كانت علامات مانعة تنهاه عن المضى فى سبيل بدأ السير فيه •• أما الغيبوبة ، فكانت تقصر أو تطول ، وقد استغرق فيها مرة أربعة وعشرين ساعة ، ولكن العلامات الخفية ، كانت تعرض له على غير انتظار ، فيقف ، كأنه يصغى أو يستمع الى صوت غامض ولكنه واضح له • وكان يلبى نواهيها • والمرة الوحيدة التى خالف فيها أمرها حدثت فى أواخر أيامه ، وقد كان مندفعا الى الاندماج فى السياسة ، والاشتراك فى أعمال الحكام ، وكانت عاقبته وبالا كما سنرى •••

والكلام عن التصوف ، يدعونا الى أن نتكلم عن ديانته ؟

من الواضح أن عقلا كبيرا مثل عقل سقراط لا يمكن أن يستسلم لأى عقيدة ـ دينية أو غير دينية ـ بغير مناقشة • ولهذا فقد كان عليه بالطبع أن يناقش الديانات التى كانت شائعة فى أثينا فى ذلك الوقت ليتخير الأصلح منها •

ولقد كانت الديانات السائدة فى أثينا فى أيامه ثلاثا • •الديانة الأورفية ، والديانة العلمية الفلسفية ثم الديانة القائمة على الأساطير ، وهذه كانت أكثرها انتشارا • غير أنه يمكننا القول ، أن هذه الديانات بمذاهبها المختلفة لم تقنع سقراط فهجرها برما بها ، وشق طريقا جديدا هو « أن يعلم الناس كيف يمارسون حياتهم ، وكيف يعاملون غيرهم » ووجد أن هذه أفضل ديانة « مؤقتا » •

ويمكننا أن نقرر كذلك أن سقراط أول من اعتنق مبـدأ « خلود الروح » ، وأنه أول من ذكر كلمة الروح soul ، وأنه أول من جعل لها معنى بأنها « الشيء الذى يحتوى صفاتنا الذهنية والخلقية ، ولذلك سميت فلسفته بحق « الفلسفة الأخلاقية » .

وقبل أن ننتقل الى المرحلتين الثانية والثالثة من حيـاته ، يجدر بنا أن نقول ، ان وقت هذه المرحلة الأولى قد يتفق مع الوقت الذى حدثت فيه معجزة دلف قبل حرب البلوبونيز بين أثينا واسبارطة ، فقد اجتمع أهل اليونان فى معبد دلف لتحية الأرباب وسؤالهم عما يهمهم ، والاستعانة بهم فى قضاء حوائجهم ... وأخـذت الكاهنات يجبن على هاته الأسئلة . وحدث أن وجه « سيروفون » سؤالا الى الاله « أبولو » عمن هو أحكم الحكماء ؟ فأجاب على لسان احدى الكاهنات « سقراط » .

أما سقراط ، فقد اعترته أزمة نفسية عنيفة اذ استغرب أمر هذه المعجزة ، ومضى يبحث عن دليل صدقها ، فأخذ يبحث عن الحكمة بين جميع الطبقات حتى تأكد لديه صدق هذه النبوءة ...

ثم حدثت له أزمة أشد اذ أخذ يسأل نفسه أسئلة ليجيب عنها ..

– لماذا نطقت الكاهنة بهذا الحديث ؟

– عليه رسالة يجب أن يؤديها ...

– أى رسالة بالضبط .. ؟

– أن يتعهد الانسان روحه ويسهر عليها وينظفها ..

اذن فهو مكلف برسالة ، فاندفع يؤديها بأمانة حتى وفاته .

والمرحلة الثانية : هى ـ كما سبق القول ـ المرحلة التى قامت فيها الحرب بين أثينا واسبارطة · ولقد كان سقراط جنديا فى هـذه الحرب ، وتاريخه العسكرى رائع مشرف · ولما عاد أخذ يسأل كل شخص : ما حال الفلسفة فى أثينا ؟ وما حال شباب هذا البلد ؟

أما المرحلة الثالثة : فهى التى اشترك فيها اشتراكا فعليا فى أمور مواطنيه ، وهى المرحلة التى أخذ ينفذ فيها رسالته بقوة ، وقد كلفه ذلك غاليا ، اذ أدى به الى المحاكمة فالموت · وكل نفس أبية لم يطرق أى باب للخلاص ما دام يتنافى مع مبادىء الرسالة التى يعتنقها ··

عندما هزمت الديمقراطية ، حكمت أثينا لجنة مكونة من ٣٠ رجلا كان من بينهم صديقه الحميم كريشياس · فاستبدت وطغت ، وأخذت تصادر الأموال وتخالف القوانين ، وتحاكم القواد · فثار سقراط على ذلك ، وأبى أن يشترك فى هذه الأعمال مع أنه كان عضوا فى اللجنة التى تولت محاكمة القواد ، وأبى كذلك أن يستمر فى أعمـال المصادرة والقتل بغير جريرة مع تكليفه بذلك ، كل هـذا زيادة على انتقاده علنا لهذه التصرفات حتى زجره صديقه كريشياس وثار فى وجهه غاضبا ·

ولقد كان انتقاده للديمقراطية ، أن هؤلاء فيهم الفضـلاء ، وهؤلاء منهم السادة الأكفاء ، ولكن ما فائدة ذلك ان لم ينقل هؤلاء فضلهم وأهليتهم للشعب ·· لقد كان بركليز عظيما ، ولكن أين مثار عظمته ·· وكان أرستبد عادلا ، ولكن أين عدوى عدله ؟!

كان يصيح بهذا النقد علنا ، فأحفظ قلوب الحكام عليه ، وطلبوا تقديمه للمحاكمة أربع سنوات ، أى بعد ما عادت الديمقراطية وانتظمت دوائر المحاكمة من جديد ·· وكان فى مقدوره أن يهرب ، وأن ينفى

نفسه بنفسه ، ولكنه انتظر المحاكمة هادئا ، وكانت أسباب المحاكمة هى :

١ ـ افساد ديانة اليونانيين .

٢ ـ افساد أخلاق الشباب .

٣ ـ انه مسئول عن هرب « السبياديس » الى صفوف الأسبارطيين مما أدى الى هزيمة أثينا .

٤ ـ أن كل ما جاء فى مسرحية ارستوفان حقيقى وينطبق عليه . وأنها لم تكن مجرد سخرية . ومعنى هذا أنه كان صاحب مدرسة يتقاضى منها أجرا وأنه اخترع دينا جديدا مبنيا على الهواء والأشباح ghosts وعلى تقاليع أخرى منها أنه اخترع آلة يتماوج بها فكره خوفا من التصاقه بالارض .

لم يحاول سقراط فى دفاعه أن يبرىء نفسه وقد كان فى مقدوره أن يشيد بتاريخه العسكرى . ولكنه حاجهم فيما يتعلق بالدين ، وأحرجهم حتى لم يستطيعوا الكلام ، ثم اقنعهم بأنه ليست له مدرسة ولم يتناول أجرا ما ، وبعد ذلك أفاض فى وصف المعجزة وآثارها وانتهى الى شرح رسالته . وأخيرا قال « ان الفلسفة بحث عن الحقيقة ، ولكن هذا البحث أثناء الحياة يرى من خلال ثقوب ، أما بعد الموت فهو يستكمله بلا ستار وحجاب ، وبعد ذلك أخذ يمتدح الموت كباب من أبواب الخلاص والمعرفة الحقيقية .

وكان المحكمون خمسمائة وحكموا عليه بالاعدام بأغلبية قليلة .

ولدواع مقدسة ، تأجل التنفيذ شهرا . فأخذ يقضيه فى تعليم أصدقائه وتلاميذه حتى اليوم الأخير ، وحتى فى صباح ذلك اليوم ، أخذ يحدثهم عن عظمة الموت ، فلما حان ميعاد التنفيذ قدم له السجان الكأس وهو يبكى فقال للسجان : لماذا تبكى .. انك تأخذ جسدى فقط ..

وأخذ محبوه يبكون ، فزجرهم ، وتناول الكأس مسرورا راضيا . ثم وسد نفسه ، ومات بهدوء تام .

*
* *

ان ساعة مع أفلاطون العظيم ، أقل من أن تطلعنا على جزء من ألف من تفكير ذلك الذهن الجبار ، والواقع انى لا أشبه فى هذا الزمن القصير أكثر من سائح أو دليل أو مقدم مسارد . انى أمام أفلاطون ، أرانى قبل موسوعة فخمة . وعظمة هذه الموسوعة قائمة فى أنها أساس كل تفكير حديث فنحن نجد بها ما ننشده من الحديث عن الفن والأدب ، وما نتطلبه من البحث فى نظم الحكم ، وما نتخيله عن العالم الكامل ، وما نريد أن نعرفه من أصول علم النفس ، وما نود أن نلم به من مناهج التعليم . وفى الحق أن الانسان ليحار فى كنه ذلك الفكر الجبار الذى استوعب كل ذلك وفصله ذلك التفصيل الخارق المعجز . والمدهش انه لم يكتب بأسلوب فلسفى غامض أو قلق ، بل كتب بأسلوب شعرى واضح جميل . حتى ان الانسان ما يكاد يبدأ القراءة حتى يجد نفسه مسوقا الى النهاية على الرغم منه ، كأنه يقرأ رواية رائعة . ويكفى متعة أن نعود الى المحاورات من وقت لآخر ، وأن نخوض فى « الجمهورية » كما نخوض عباب يم زاخر ، يكفى هذان على الأقل ولا نتحدث عن الباقى من مؤلفاته .

على أن الذى يريد أن يقرأ أفلاطون عليـه أن يلم بعصره وأن يلم بحـالة بلاده فى ذلك العصر من حيث الحـكم والاقتصـاد والحـرب والسياسة وعليه كذلك أن يلم بسيرته هو من حيث اقامته وظعنه ، ومن حيث ان بدأ تلميذا الى أن انتهى معلما وفيلسوفا تام النضج ٠

نبدأ الآن بوصف صغير لليونان ، فى عهد أفلاطون ، فقـد ولد أفلاطون فى أثينا سنة ٤٢٧ ق٠م٠ واليونان فى الخريطة تشـبه يد هيكل عظمى ، تمتد فى البحر الأبيض المتوسط وتشير الى كريت ، كأنما تشير الى المنبع الذى سرت منه الحضارة اليها والى غيرها ٠ الى شرق اليونان نجد آسيا الصغرى ، وهى فى تاريخنا الحاضر هـادئة وادعة ، ولكنها فى عصر أفلاطون كانت تموج بالفلسـفة ، وتزخر بمختلف ضروب النشاط الفكرى والتجارى ، والى الغرب نجد ايطاليا وصقلية وقد كانتا تابعتين لليونان وفيهما مـدارس لامعـة للفـكر والثقافة والعلم٠واذا اتجهنا الى الشمال فثم مقدونياوتساليا وابيروس وقد كانت هذه الابواب التى دخل منها الهمج الذين عمروا اليونان ومن مزاجهم العنيف القوى ، انحدرت الى التاريخ عقول جبارة مثل نهومير وبركليز وغيرهما ٠

كانت اليونان فى عهد أفلاطون مكونة من مـدن مستقلة تسـمى الواحدة منها المدينة الدولة ، وساعد على استقلال كل منها مايحيط بها من المرتفعات ويفصل بينها من الخلجان ويحيط بها من التضاريس٠ فمذ كانت المواصلات بين المدينـة والأخرى من الصـعوبة بمكان ، استقلت كل منها بنفسها ٠ ومن أشهر هذه المدن اسبارطه ، التى كانت تنافس أثينـا كما كانت ألمانيـا تنافس انجلترا فى العصر الحاضر ٠ ولقد كانت اسبارطه قوية فى البر كما كانت أثينا قوية فى البحر ٠ فكانتا تتحدان ضد العدو المهاجم ، حتى اذا انصرف العدو، عادتا للتنافس الحار ٠ ولقد كشف برتراند رسـل فى كتـابه عن

الفلسفة الغربية سر المصدر الذى منه استقى أفلاطون معلوماته عن المجتمع والحكم ، فقد سرد برتراند رسل فى كتابه المذكور تفاصيل النظم والقوانين فى اسبارطه ، فاذا هى هى تعليم أفلاطون مع تغيير قليل ٠ غير أن أهل اسبارطه كانوا يهدفون الى بناء أقسام قوية جميلة رشيقة ، حتى انه كان يتحتم على البطل اذا مات فى الحرب أن يموت « برشاقة » أى يموت كما ينام ، بلا أنين ولا دمامة ولا اضطراب ، أى يمهد قبره كما يمهد فراشه ! ولكن أفلاطون عـاب على المربين أن ينصرفوا هذا الانصراف الكلى لتنشئة الأجسام ، وأشار بأن يتجهوا الى نواح أخرى سنفصلها فيما بعد ٠

على أنه فى التنــافس المذكور ، كانت أثينــا هى الغانمة ٠ فان ميناءها بيريه وأسطولها الذى كان فى الحــرب محاربا وفى الســلم تاجرا ، جلبا الى أثينا التجار من مختلف الملل والنحل ٠ وكان جوب البحار سببا فى أن يدرس اليونانيون الفلك ٠ كما كانت المبادلات التجارية سببا فى أن يدرسوا الأرقام الرياضية ، وكان الرخاء سببا فى توفــير الوقت الذى هــو العنصر الأول فى البحث والاختراع والتفكير الحر فأخذ الانسان يفكر فى طرق طبيعية يفسر بها الحوادث الكونية وانصرف عن تفسيرها بواسطة الخرافة والسحر ٠ فمن ثم بدأت الفلسفة ، على أن الفلســفة بدأت طبيعيــة ، أى بدأت تتفهم « طبيعة الأشياء » وقــد انتهى ذلك العهد بالفيلسوف ديمقريطس الذى كان يعتقد أن الكون « ذرات وفراغ » وكان من مؤيديه أبيقور، ثم لوكريتس فى قصيدته الخالدة ٠ غير أن مجىء السوفسطائيين بدل اتجاه ذلك التيار فان هؤلاء نقلوا التفكير من محيط الأشياء الى محيط الانسان ٠ ومهما يوجه اليهم من النقد من حيث اعتمادهم على البيان المدوى واللفظ المزخرف المجلجل ، فقد ظهر من بينهم رجال ذوو عمق وفهم وأصالة مثل بروتاجوراس وهيبياس٠ على أن السفسطائيين هم الذين ابتدعوا طريقة الحوار والجدل والتساؤل ٠ وقد كانوا شجعانا،

يقفون مدافعين عن آرائهم مهما كان وراء هـذا الدفاع من المسئولية والخطر . وكانت آراؤهم السياسية تنقسم الى فريقين ، فمنهم من كان ـ مثل روسو فيما بعد ـ يدعو الى الرجوع الى الطبيعة على زعم أن الناس يتساوون دائما أمـام الطبيعة ، والفريق الثانى ـ مثـل نيتشه فيما بعد ـ يدعو الى القوة ، ويقول ان القوانين انما أرادها الضعيف لتحد من مطامع القوى . مع أن القوة هى كل شىء .

فلما ظهر سقراط سار على طريقة السوفسطائيين ، غير أنه أول من دعا نفسه بالفيلسوف أى عاشق الحكمة ، بخلاف كلمة سوفسطائى التى معناها « غارق فى الحكمة » وكان يقول عن نفسه « انى على يقين من شىء واحد هو انى لا أعرف شيئا ... » ويشبه فى العصر الحديث فيلسوف كبير ـ برنارد شو على الارجح ـ فى قوله : « فى الأربعين اكتشفت اكتشافا هاما : اكتشفت علمى بجهلى » .

ان سقراط كان يدعى الجهل عمدا لكى يصل الى الحقيقة ، وقـد كان صارما عنيفا فى الوسيلة التى تصل به اليها ، يتضح ذلك من محاورات أفلاطون ، فقد كان يعتصر محاوره فى الجدل اعتصارا حتى يجعله يثور ويجبن ، على أنه لا يلبث أن يهدأ حين يقوده سقراط بيده الى الطريق الذى يكشف له الحقيقة .

وقد كان سقراط كذلك عنيفا فى آرائه السياسية . فقـد كان لا يؤمن بالديمقراطية . اذ كان يعتقد أن الذكاء هو الذى يجب أن يحكم وله رأى فى الديمقراطية عجيب هو أن الجماهير أبواق نحاسية تظل تدوى حتى يأتى من يسكتها بيده . ولا ندرى أكان سـقراط يتنبأ بما ستصنعه الديمقراطية به يوما من الايام . هل كان يدرى أنه على يديها سيتناول كأس السم ذات يوم ؟

على أن ديمقراطية أثينا كانت تامة بقدر ما كانت شاذة خرقاء ٠ فقد كان عدد سكان أثينا ٣٠٠٠٠٠ منهم ٢٠٠٠٠٠ عبيد والباقى أحرار يؤخذ صوتهم جميعا فيما يهم الدولة من الشؤون ٠

على أن الديمقراطية أسلمت زمامها فيما بعد الى اوليجارشية ـ أى جماعة من الأثرياء ـ يحكمون أثينا ٠ ولكن الحرب بين أثيناواسبارطة أدت الى نفى هؤلاء ، وعلى رأسهم كريتياس عم أفلاطون، ولكنهم صدر عنهم عفو فما لبثوا أن عادوا من المنفى وأعلنوا الثورة على الديمقراطية غير أنهم هزموا وقتل كريتياس وقبض على سقراط بتهمة أنه أفسد أخلاق الجيل ، ونشر الكفر والزندقة ، بينما السبب الحقيقى المستتر وراء كل هذا ، هو مبدؤه السياسى ، وتندره بالديمقراطية ٠ وخلاصة كل ما سبق ، وأهميته من حيث موضوعنا أن كريتياس عم أفلاطون، وسقراط أستاذه ٠

كان لقاء أفلاطون بسقراط شيئا هاما جدا فى حياته ٠ فلقد ولد أفلاطون فى الثراء والمجد والنعمة والسعة ٠ وكان رياضيا أوتى بسطة فى الجسم ووسامة فى الوجه ٠ وحتى اسمه (Plato) معناه « عريض الالواح » ومن الواضح أنه ليس من السهل أن ينشأ الفلاسفة من هذا الوسط ٠ ولكن التلميذ ما لبث أن تأثر بأستاذه حتى لقد قال : « أحمد الله على انى ولدت اغريقيا ، وولدت حرا غير عبد ورجلا لا امرأة وانى ولدت فى عصر سقراط » ٠٠

كان أفلاطون فى الثامنة والعشرين حين مات أستاذه ٠ ولعل موت أستاذه بالسم ، بعد المحاكمة الشهيرة ملأه حقدا على الجماهير حتى أساء الظن بهم ٠ وفكر فى طريقة جديدة لتهذيبهم وأخذت الفكرة تتطور حتى صارت مشغلة حياته ٠ ومما يذكر أن أفلاطون صنع ما يستطاع لكى ينقذ سقراط فلم يستطع وعرض نفسه للشبهات

والتهم والأقاويل . فنصحه أصدقاءه بالهرب ، فأخذ يستعد للرحيل والتجوال فرحل الى مصر سنة ٣٩٩ قبل الميلاد ، ففوجيء بما رآه وشاهده بمصر مما لم يكن يتوقعه . اذ قال له الكهنة المصريون أن اليونان مدينة طفلة لا علاقة لها فى التقاليد والثقافة ، ولقد راعته مصر بسبقها فى العلم واتقان الزراعة وبقى هذا فى ذهنه حتى رسم صورة للمدينة الفاضلة ، ولقد رحل عن مصر كأنما صدم فى غروره، فقصد صقلية فألفى هناك أتباع فيثاغورث الذين كأنما وجدوا أمامه ليتموا صورة المدينة الفاضلة فى ذهنه ، فقد ألفى نفرا من الحكماء الزاهدين الفلاسفة ، قد انقطعوا للتفكير والفلسفة والحكم . ثم لبث اثنى عشر عاما بعد ذلك يضرب فى الآفاق من بلد الى بلد حتى لقد ذكر بعض المؤلفين أنه وصل الى حدود الهند . ثم عاد الى أثينا ٣٨٧ ق.م. وعمره اذ ذاك أربعون سنة . وقد انضجه السفر وهذبه التجوال وثقفه ، فاختلط عنده العلم بالفلسفة بالحكمة بالشعر فى امتزاج عجيب . ولقد اتخذ لنفسه أسلوبا فى التعليم والكتابة اجتمع فيه الجمال بالصدق ، والدقة بالبيان الناصع ، والواقع أن الصعوبة فى فهم أفلاطون ترجع أحيانا الى ذلك الأسلوب الشعرى الذى تتخلله السخرية أحيانا فان الانسان حينما يقرؤه يحار أهو يجد أو يمزح ! وأحيانا يجد الانسان نفسه سابحا فى جو غامض لذيذ يحمله على جناحين مسحورين يلهيانه عن التساؤل عن معنى كل ذلك ..

والعجيب أن أفلاطون يجمع فى أسلوبه المتناقضات التى عابها على الآخرين فهو لا يحب الشعراء ، ومع ذلك له أسلوب الشاعر .وهو لا يحب الكهنة والوعاظ ، ومع ذلك فهو يعظ ، ويدعو الى الدين فى أكثر من موضع . وينعى على السفسطائيين بيانهم وثرثرتهم وهو لم يخل من الثرثرة ، والاسترسال فى البيان المجلجل فى أكثر من موضع واحد .

على أنه مهما يكن من ذلك فان « أفلاطـون الفلسفة والفلسـفة أفلاطون » كما قال أمرسون ٠

هذه هى النواحى التى تتناولها فلسفته ٠ ولن اتصدى لها بأكثر من المامة خاطفة ، فانى كما قلت سابقا ، لست فى هذا الخضم المتلاطم أكثر من سائح أو دليل ٠

١ ـ نظرية المثل ٠

٢ ـ النظرية الاخلاقية ٠

٣ ـ النظرية السيكولوجية ٠

٤ ـ النظرية التربوية ٠

(١) نظرية المثل أو الصور (forme)نظرية رائعة حقا فهى تبـدأ من المنطق البسيط حتى تصل فى تطبيقها الى أكثر نواحى الحيـاة تعقيدا وغموضا ٠ وقد بدأها أفلاطون بالتفكير فى طبيعة الأشـياء العادية المألوفة ٠ مائدة مثلا : المائدة شيء له صفات ٠٠ حجم صلابة لون ، فاذا تناولنا هذه الصفات وجدناها نسبية محضة ، أى أنهـا ليست لها حقائق مطلقة ، انها صفات تتوقف على العلاقة بينها وبين أشياء أخرى فالحجم مثلا يتوقف على المسافة التى بين الشيء والمشاهد له ، واللون يتوقف على الضوء المتساقط ولونه ، والصلابة تتوقف على قبضة الضارب وكنهه فالمائدة صلبة بالنسبة لليد البشرية ولكن ليست صلبة لمطرقة حديدية ٠ على أن هذه الصفات لمادة ما ٠ فاذا كانت هذه الصفات وهمية فلنجرب تجريد المادة من هذه الصفات ٠ ماذا يبقى ؟ لا شيء ٠ لانه لا يمكن تصور مادة بغير صفات ٠ ولـكن ما حكم علم الطبيعة الذى يقوم كله على « الأشياء » الواقع أننا فى هذا العلم كغيره انمـا نتناول نسـبا وعلاقات ولكنـا لا نعرف كنه

الأشياء بالذات · فاذا كان الشيء مجهول الكنه ، والصفة وهمية ، أى أن الأبيض مثلا وهمى ، فلننظر فى صفة « البياض » لنرى هى هذه أيضا وهمية : هذه الصفة مشتركة فى اللبن والقشدة وملاءة الفراش وليس اللبن هو ملاءة الفراش ، معنى ذلك أن هذه الصفة خارجة عن كنه الشيء بالذات فهل يمكن أن يكون البياض صفة ذهنية، نصطنعها لأنفسنا ؟ أفلاطون يقول ان هذا مستحيل ، والا فاذا فقد الانسان وعيه فقد البياض صفته ! واذا كانت المسألة صفة ذهنية ، يكون لكل ذهن بياضه الخاص وهذا مستحيل ·

النتيجة أن البياض صفة يعرفها العقل حين يراها ، أى أنها صفة أزلية مشتركة اذا رآها العقل البشرى عرفها كأنما يتذكرها · أى أن هناك « شكلا » أو مثلا أزليا أبيض هو الذى يعطى للأشياء صفة البياض اذا حل بها · اذن فلكل صفة ناقصة لدينا صفة كاملة هى صفتها الحقيقية التامة فاننا لا نتخيل شيئا ساخنا مثلا الا وجد ما هو أسخن منه · وحتى المثلث الذى نعرفه لا يكون الا صورة ناقصة لمثلث كامل · فان المثلث الذى نعرفه ليس مثلثا حقيقيا لان خطوطه فى الواقع لها طول وعرض ثم ان هذه الخطوط ليست مستقيمة تماما · بناء على ذلك هذه الصور أو المثل باقية خالدة وما لدينا نحن غير ظلال لعالم آخر هو الباقى الدائم السرمدى الذى لا يمحى ·

الآن هل يمكن تطبيق هذه النظرية على الفن ؟

ما هو هذا الذى يجعلنا نحب الشعر ونطرب للموسيقى ؟

لا شك أن الطرب والاعجاب أساسهما صورة أزلية مشتركة اسمها «الجمال» وهنا نقف لنتساءل هل وظيفة هذه الصفة الثابتة المشتركة أن تخلع على نفسها الأشياء فحسب بل هناك وظيفة هى أن يعرف

الناس أن العالم ظلال وأشباح وأن هناك حقيقة كبرى كاملة وأن الناس يجب أن يؤمنوا بها ويتطلعوا اليها ويعملوا على الوصول اليها نصل الى نقطة هامة فى طبيعة الفنان . فالفنان هو الذى يرى الجمال فى صورته الأزلية الحقيقية وعليه بعد ذلك أن يجلوه للناس أو بعبارة أخرى يجسم الصورة . فالجمال اذن غرض الفنان من حيث أنه موضع رؤيته ، وغرض العمل الفنى لانه يرمى الى تجسيد الجمال، وغرض النظارة لانهم يتطلعون عن سبيله الى القيم العليا الخالدة . والفنان بالطبع يستعمل المادة الخام ليجسم بها الصورة أما من جهة التمثيل فان النظارة هم الأشباح والممثل هو الذى تتجلى الحقيقة الفنية على لسانه .

والآن هل يمكن تطبيق نظرية المثل على الأخلاق ؟ ان أفلاطون يقول ان الحقيقة التى لا نعثر عليها فى الأشياء ، نعثر عليها فى عالمين : عالم المنطق والرياضة ، ثم عالم الأخلاق ، ففى العالم الاول هناك حقائق ثابتة يمكن الاطمئنان اليها . فمثلا الكل أكبر من الجزء ، و ا٢ ـ ب٢ = (ا + ب) (ا ـ ب) هذه حقائق ثابتة لا جدال فيها أما فى عالم الأخلاق ، فان هناك ايمانا لا يرقى اليه الشك فى جميع النفوس بلا استثناء ، ان الخير أحسن من الشر . وان العدل أحسن من الظلم . ان هذه المثل الانسانية انما هى ظلال لمثل عليا .

هذه المثل الثابتة ـ هذه النماذج ـ يتوسطها الخير كملك نورانى متوج .

وبناء على ذلك يكون الخير عند أفلاطون موضوعيا ، أى تابع لخير خارجى . ولكن السؤال المحير هو هذا : كيف تقول اننا نعرف صورة الخير لأنها أزلية فى نفوسنا ومع ذلك نقول أن الخير خارجى؟ وبعبارة أخرى كيف تجثم الحقيقة الكبرى فى أعماقنا ثم تبدو فى ظلال

ناقصة . وكيف لا تؤدى الرحمة الثابتة المتأصلة فى نفوسنا الا الى عالم مشوه معطوب حافل بالقسوة والشرور ؟

لم يجب أفلاطون على هذا السؤال ولن يجيب أحد .

ننتقل الآن الى سيكولوجية أفلاطون .

يقول أفلاطون أن السلوك الانسانى ينبع من ثلاثة ينابيع: الرغبة والعاطفة والمعرفة ، والرغبة والشهوة والدافع والغريزة شىء واحد . والعاطفة والطموح والشجاعة شىء واحد ، والمعرفة والفكر والذكاء والتعقل شىء واحد . والرغبة مركزها بين الفخذين . وهى قدر يغلى من الطاقة البشرية . وأكثرها جنسى . أما الانفعال فمركزه القلب . وأما المعرفة فمركزها الدماغ . وهذه الينابيع مشتركة فى الرجال جميعا ولكنها تختلف قوة . ولكى يتم أى عمل منظم يجب أن تتحد المنابع الثلاثة بانسجام . وما يقال عن الأشخاص يقال عن الدول . فالدولة الكاملة هى التى تتسق بها القوى الثلاثة على شرط أن يكون العقل قائدها .

وأن الاختلال يحدث حين تختلط الأمور ويوضع الشىء فى غير مكانه ، فيحل الاقتصادى مكان الجندى والجندى محل الفيلسوف .. والانسان يتسم بالعدل حين تنسجم فى نفسه القوى الثلاثة على أن تخضع للعقل والعدل الفردى هو ذلك الانسجام الناشىء من جمال الروح والعدل الاجتماعى هو الأثر الظاهر من انسجام قوى الدولة وحلول كل قوة مكانها الطبيعى .

وهنا نعجب لأن أفلاطون تكلم عن « غول الشهوة » الذى تكلم عنه فرويد غير أنه يضيف أن هذا الغول يطغى بالافراط فى المآكل

والمشرب والملذات وقد يؤدى ذلك الى جريمة جنسية كعشق الوالدين مثلا (مركب أوديب !) ويقول أفلاطون أن هذا الغول فينا جميعا غير أن بعضنا يعطيه القيادة وبعضنا يحول قوته الطاغية الى قوة منظمة خيرة ويعتقد أفلاطون أن الموسيقى تنيم هذا الطاغية · وقد ضرب مثلا بقسيس كان يعالج المصابات بالهستريا بواسطة الموسيقى ·

ثم ينقلنا نقلة غريبة حين يطبق هذه الآراء على التعليم فيقول انه يجب على الجميع أن يتعلموا بلا استثناء · ويكون تعليمهم رياضيا لتكوين أجسامهم · ومصحوبا بالموسيقى ويشترط أن لا يكرهوا على العلم اكراها ، بل يتناولونه مخففا بالموسيقى · وهو يعتقد جازما بأن هذا المزيج من الرياضة والحرية فى الشباب يؤدى الى الوقاية من الأمراض فى المستقبل ويغنى عن الطب والأطباء ·

ثم يشير الى أهمية الدين فى التعليم قائلا : انه عند سن العشرين يقترح « فرزا » عاما بحيث يوجه كل لما يصلح له · وقد يعترض المعترضون ويثورون ، فاذا آمنوا عن طريق التدين أن هذه ارادة الله ، وأنه هكذا شاء أن يوزع المواهب ، رضوا بقسمتهم ، ومضوا ، كل فى سبيله ، ليعمل لصالح أمته فى الطريق الذى رسم له ·

هذه ساعة مع أفلاطون ، وأعتقد انى ظلمته وظلمت فلسفته لانى لم أقل شيئا ·

رسالة الحضارة

قبل أن نتحدث عن رسالة الحضارة يحسن أن نعين معنى الحضارة. ثم نتحدث عن نشوئها ثم عن الحضارات التى التمعت فى التاريخ ثم انطفأت ، عن أسباب انهيار تلك الحضارات وأخيرا مميزات الحضارة الحالية وعن التصدع الذى فى بنائها ، وأخيرا هل هناك أمل فى رأب ذلك الصدع ؟

أما عن معنى الحضارة فمن الطريف انه جرى حوار بين الفيلسوف الكبير جود وابنته المثقفة عن معنى الحضارة ، وهذا الحوار يجوز أن يجرى بين اثنين من المثقفين ، ويجوز أن يحدث هذا من الابهام فى معنى الحضارة لأى مثقف كما حدث لابنة الفيلسوف . ولذلك سأوجز هذا الحوار اللطيف قبل أن أسترسل فى البحث .

أنا ــ أريد أن أعرف الحضارة ، فما هو التعريف الذى لديك ؟

ابنتى ــ أظن ان الحضارة هى الملابس الجميلة وركوب السيارات والحوانيت القريبة نبتاع منها ما نشاء .

أنا ــ نعم ، ولكنك تعلمين أن الأطفال يلبسون الملابس الجميلة ، وان خادمتنا تركب السيارات العامة وتبتاع الأشياء من الحوانيت فهل تريدين أن تقولى أن الأطفال متحضرون وأن خادمتنا متحضرة ؟

ابنتى ـ لا لست أظنهم كذلك ٠ وانما هناك أسباب أخرى تجعلهم متحضرين اذا شاءوا كالآلات والقطر الحديدية والاذاعة والمسرة والسينما ٠

أنا ـ لا أوافق على هذا فان كلمة المتحضر فى معناها ما يشرف فهل فى الذى ذكرت شىء مشرف ، اذكرى لى مثلا لانسان متحضر يشرفك ويشرف الدنيا ذكره ٠

ابنتى ـ بتهوفن ، شاكسبير ، رافاييل ٠

أنا ـ هذا بديع ٠ كدنا نصل ٠ تعنين أن الأشياء الجميلة كالموسيقى والشعر والتصوير من مميزات الحضارة ؟

ابنتى ـ نعم كل شىء جميل من مميزات الحضارة ٠

أنا ـ الحلوى ـ القصور الجميلة ـ الأشياء الجميلة التى نحصل عليها بالمال والجاه والسلطان ٠٠

ابنتى ـ كلا ٠٠ كلا ٠٠

أنا ـ تعنين أن هذا اللون من الجمال ، شىء مادى يشتهى فينال فيمل ؟ وتنشدين جمالا لا تسأمه النفس ولا يتغير معناه على الزمن ٠٠

ابنتى ـ نعم هذا ما أعنى ٠ وأريد أن أذكر شيئا آخر له صلة بالحضارة ، الآلات ٠ وان لم يكن لها أى جمال ٠ ...

أنا ـ الآلات نفسها لا تهم ، وانما الاختراع بالذات هو الذى يهم

ـ معنى الاختراع ـ جمال الفكر الانسانى وعظمته ، روعة ذلك الشىء الذى يجىء بالجديد المخالف .

ابنتى ـ ولم كان التفكير الجديد دالا على الحضارة ؟

أنـا ـ التفكير الجديد معناه التفكير الحر .

ابنتى ـ وماذا يمنع الناس من التفكير الحر ؟

أنـا ـ أن لا يكون الانسان آمنـا على نفسه لان مخالفـة العرف معناها التعرض للعقاب . فالتفكير الحر معناه وجود الأمن . ومعناه كذلك الوقت الكافى للابتكار والتجديد . ومعناهما معا أن الانسان لم يعد عبدا للرزق ، أى ان الرزق لم يعد همه الأول وشغلهالشاغل، فلدى الانسان وقت يقضيه فى غير التفكير فى الطعام والكساء . أى ان الأمن والفراغ من مميزات الحضارة . لأنهما يعينان على التفكير الحر الجديد . وكل شىء يوفر للناس هذا الضرب من التفكير يساعد على قيام الحضارة . من هنا صلة الآلة بالحضارة لانها توفر للناس الوقت فينصرفون للتفكير . وكذلك طاعة القانون تضمن وجود الأمن وبالتالى تضمن أن يكون الناس أخيارا ولو مكرهين . وبذلكيصيرون اجتماعيين وتتحسن الصلات بينهم . هذه هى أعمدة الحضارة صنع الأشياء الجميلة . وهذا هو الفن ، والتفكير الحر الخالق ، أى العـلم والفلسفة ، وطاعة القوانين وهذا ما يسـمى العـدالة السياسـية والاقتصادية . وأخيرا وجود الأمن والفراغوحسن الصلاتالاجتماعية

هذا هو الحوار الممتع الذى جرى بين جود وابنته وهو مقدمة بليغة للمناقشة فى موضوع الحضارة ..

يبدو من هذا جليـا أن من ذكرهم التاريخ فى كتبـه وأفرد لهم الفصول الطوال ، كاسكندر الأكبر وهانيبـال ونابليون هم الذين

يجب أن نخرجهم من كتاب الحضارة · لانهم هم الذين أخروا العالم ومشوا به القهقرى · بينما نجد أن هناك قلة من البشر ، نشأوا أفذاذا وعاشوا أفذاذا ، هم الذين أقاموا بناء الحضارة على أكتافهم ، فلو انى خيرت فى كتابة التاريخ من جديد لمررت بهؤلاء الغزاة مرا · ولملأت كتابى بالحديث عن كونفوشيوس ومحمد وعيسى وسقراط وأفلاطون وبيكون وكوبرنيكوس وجاليليو ووات ونيوتن ، أولئك الذين بنوا الحضارة على دعامتين الأولى الخير وحسن الجوار وطيب الصلات والثانية تحرير الفكر وكسر الأغلال التى تكبل التفكير ··

أعنى تحرير النفس من عبودية الأنانية وتحرر الفكر من عبودية الجمود ·

أين مكاننا اليوم من هذا؟ اننا كأفراد صرنا نطيع القانون، ونحترم الجوار ، ونقدم على قليل للمساعدة للغير · ولكننا كأمم لا نزال ندين بشريعة الحرب ونخضع لقوانين القوة ونتربص للجار ونقيم الحواجز وندبر الخطط أى أن عقل الفرد أخذ يتحرر ببطء، ولكن عقول الساسة لا تزال تتخبط فى ظلمات البدائية الأولى ·

على أننا اذا فرضنا أن تاريخ الكائنات ١٠٠ عام ، فان تاريخ الانسان شهر والانسان المتحضر سبع ساعات أى أننا لا نزال فى حواشى الفجر !

لقد ذكرت دعامات الحضارة وقلت أنها « الجمال فى صور فنية » وانها الأمن والفراغ والعدالة الاجتماعية (سياسية واقتصادية) ، والصلات الاجتماعية القائمة على الخير والايثار ·

غير أن هذا كله يمكن أن يوجز فى عمودين ، صلات الخير ، وصلات الفكر المتحرر ·

الأول اقامه المصلحون الدينيون والفلاسفة والثانى أقامه العلماء. والواقع أنه ليس بين هذين الفريقين من حدود فان الفلاسفة فكروا تفكيرا نظريا حرا ، والعلماء فكروا تفكيرا عمليا حرا .

الأولون وسعوا نطاق النفس ، فاطلعوا الناس على ما كان خافيا من مواطن الجمال ، ومن ثم نشأت الفنون ، اما العلماء فطبقوا العلم عمليا ، متحررين من القيود معرضين أنفسهم لكل أنواع الاضطهاد والسجن والتشريد ، ولكنهم أفلحوا فى خلق العصر الصناعى ، أى العصر الآلى - فبلغنا ما قد بلغناه اليوم ووفر لنا من الوقت ما به نعلم من جديد ونبتكر من جديد .

ولنعد لحظة أخرى الى التعاليم الدينية ، فهى من بدئها لختامها ، كانت تدعو لنفس المبادىء ، كانت تدعو الناس لترك الاثرة والتمسك بالايثار . كانت تدعوهم للعمل على ما هو أوسع من محيط النفس وأعلى من مستويات رغباتها ، ولكن نسيان النفس ، فى سبيل غرض اسمى من النفس ، الذى هو الطريق للحضارة والسعادة ، هو الشىء المستحيل الذى لم تستطعه الانسانية فى محاولاتها المتعددة .

هذا النسيان ، أو بالاصح هذا التخلى بعد الاخفاق فى محاولات عديدة هو السبب الأول فى خوفنا على الحضارة ، فان المادة وحدها لن تدعم بناءها .

ان جود يسمى حضارة المادة ، حضارة الحلوى ، وهو تعريف قيم. ويعنى بذلك أن حضارة المادة حضارة ترف قائمة على ما هو مستساغ كالحلوى ولكنه مأكول زائل كالظل الجميل . ومن الواجب أن تذكر أن المصريين هم الذين أقاموا الحضارة على دعامتين : الفن والحكومة الصالحة ، ولا شك أن الذين أقاموا تلك التماثيل الجميلة الرائعة

كانت نفوسهم جميلة جمال تلك التماثيل مشرقة اشراق تلك الفنون، وقد يكون ذلك ناشئا من أنهم بدأوا عهدا جديدا فى التاريخ ، عهدا توفر لهم فيه رغد العيش والأمن معا فأنتجوا ما أنتجوا ، وأبدعوا ما أبدعوا ، ولا شك أن هذا الابداع ، مقرون باختراع الكتابة ، فمما هو معروف أن المصريين هم الذين اخترعوا الكتابة ، ولما كانت الحضارة لا تتم الا بالانتقال من ممدن لمتمدين ، أى من قلة الى كثرة فان انتقال الآثار الذهنية عن هذا الطريق ـ طريق الكتابة ـ كان السبب فى قيام الحضارة أولا ، واستمرارها أخيرا ٠

ولا بد أن نذكر هنا فضل العقل اليونانى على الحضارة ، فانه هو الذى حارب الخرافة ، وتحلل من قيود الماضى ، وألقى نظرة شاملةعلى الانسان والوجود ، وبحث فى كيفية الخلق وطبيعة الخالق ، ثم حقق فى ماهية الروح ، والعقل اليونانى أول من أثار الحوار ، واستعمل الجدل ، وأول من نقل الفلسفة من بروجها العاجية الى الطرق والأسواق والأماكن العامة ٠ ثم أن العقل اليونانى أول من ناقش أنظمة الحكم المتعددة ، واستقر على أن الديمقراطية أحسنها مهما يكن بها من عيوب ٠

لماذا انهارت هاتان الحضارتان ؟

ليست هناك حضارة تستطيع البقاء اذا احتفظت بالحضارة بين ربوعها هى فقط ، كيف تعتصم الواحة ، وأين تختبىء من رمال الصحراء حولها اذا ثارت عاصفة ؟ هذا بالضبط ما حدث للحضارات القديمة التى طمست ، فان الهمج أغاروا على اليونان ، والهكسوس أغاروا على مصر، معنى ذلك أن الذين يتمتعون بنعمة الحضارة لايجب أن تحبسهم أنانيتهم ضمن جدران ضيقة ، بل عليهم أن يكونوا بدورهم ممدنين للعالم ٠

والآن لماذا يساورنا الخوف على حضارتنا الحالية ؟

ان حضارتنا الحالية يجب أن تستند دعائمها المتنوعة على العدالة الاجتماعية . وهى نوعان : عدالة سياسية يضمنها القانون ، وعدالة اقتصادية معناها حسن توزيع الأقوات .

لقد أصبح الناس اليوم متساوين أمام القانون ، وصار لهم فى كثير من البلاد صوت مسموع فى نظام الحكم الذى يخضعون له وفى اختيار حكامهم . ولكن توزيع الأقوات لا يزال ينطوى على كثير من الظلم . فالجزء الأكبر من الثروة التى تحصل عليها الأمة فى كل عام يذهب الى جيوب أقلية ضئيلة من الأفراد ، فى حين أن الكثرة الغالبة لا تحصل الا على القليل الذى لا يغنى . فهؤلاء يكدحون ليل نهار ، فى سبيل الرزق ، حتى أن هذا الكدح لا يدع لهم وقتا للتعلم، ولا يدع لهم مجالا للمحافظة على صحتهم . ولا يتيح لهم فرصة للانتاج الفنى . فاذا انصرف البؤساء منهم الى انتاج فنى فهو انتاج مبتور ناقص حادث تحت الحاح الحاجة وضرورات الفقر ، ومؤثرات الخوف والفزع ولا شك أن الحضارة منهارة طالما فيها تلك الصدوع الظاهرة فى أعمدتها .

والغالب أن الضيق الداخلى الحادث فى أمة من الأمم من سوء التوزيع الاقتصادى يؤدى الى التنفيس الخارجى بواسطة الحرب . ويزيد هذا الميل خطورة أن العالم لم يعد وحدة متماسكة فانالحواجز خفية وظاهرة قائمة قياما حقيقيا بين الأمم .

أما عن عقلية الحرب فمن الطرائف أن الملك أمان الله خان عند ما زار انجلترا أطلعوه على جميع الاستعدادات الحربية ولم يزر متحفا واحدا ، ولا استمع لشاعر واحد .

هذا الجيل جيل حرب واستعداد للحرب ولم تغير الكوارث المتوالية عقول الساسة . لان من وراء عقولهم آلات التدمير ، تلك الآلات التى اخترعها الانسان ليصير بها سيد الطبيعة فصارت هى سيدته ، فنحن نقضى العمر فى السهر عليها وتنميتها وتحسينها وتنميقها وتنظيفها وجعلها مستعدة أى أننا نصرف عمرنا فى استرضائها . وفى صنع آلات جديدة .

وللأسف ان ما توفره لنا الآلات لا يزيل البؤس والضنك ، لان توزيع الخيرات التى تنتجها توزيع غير عادل ، فيكثر عدد المتعطلين والفقراء .

انى متشائم كلما أرى عقول الساسة ترسف فى القديم البالى . متشائم كلما أرى البؤس والتعطل والفقر . متشائم كلما أرى كيف نسينا تعاليم المصلحين والرسل والحكماء ، متشائم كلما أرى أفكارنا صبيانية متحيزة ، كلما أرى أن أكثرنا ثقلت عليه وطأة الحياة ومطالب العيش حتى فقد الأمان ، وفقد معه الراحة وفقد التفكير فى غير الرزق والمعاش . انى متشائم كلما لمحت هذه الثقوب . ولكنى أعود فأقول أن رؤية العيوب والاعتراف بها ضمان لمداواتها .

ان المحاولات التى يقوم بها هنا وهناك نفر ـ وان كانوا قلة ـ تنشر الضوء من خلال الثقوب وتبشر بفجر جديد على كل حال ...

رسالة علم النفس
أو الشخصية وتكوينها

لو سألت أكثر الناس ، وخاصة المثقفين منهم عن « الشخصية » لتضاربت الآراء تضاربا كبيرا ، ومع ذلك ما أكثر ما نسمع « فلان له شخصية » ونسمع كذلك أن الاسد « له شخصية مهابة » ونسمع كذلك « على الانسان أن يعمل على تقوية شخصيته » ونسمع كذلك من علماء التربية المحدثين أن الغرض من التربية الحديثة « خلق الشخصية » ، فاذا استمعت الى هذا ثم أخذت تفكر فيه تبين لك أن الشخصية أحيانا هى نوع من القوة والخيلاء ، وأحيانا نوع من الخلق، وأحيانا نوع من الارادة الضاربة ، وأحيانا شىء غير مفهوم يوحى بالمهابة والخضوع والاحترام .

والشخصية فى الواقع ليست هذا ولا ذاك ونحن نتحدث عنها حديثا سهلا لينا كما نتحدث عن العبقرية ، بدون أن نعرف ما هى : فليس للاسد شخصية ، وليس للرجل العبوس شخصية فقد كانت زوجة بسمارك تقول انه رجل حديدى خارج بيته وهو فى داخل البيت هرة ضعيفة عجفاء .

اذن ما هى ؟ اذا اتبعنا الطريقة العلمية فأصوب الطرق أن نصعد

درج المخلوقات من البسيط للمعقد حتى نستطيع أن نعرف أن الخلية المفردة البسيطة لها من البساطة ما ينفى عنها صفة الشخصية على أى صورة فهمناها ، وكذلك فى الحشرة البسيطة مهما حبتها الطبيعة من الجمال والألوان ، فلا بد اذن عند صعود درج التطور من مرحلة نقف عندها قائلين « هنا شيء جديد » ٠

ان الحياة من أولها الى آخرها نداء واستجابة أو بعبارة أخرى دوافع حيوية والرد عليها : وهذه الدوافع الحيوية فى الخلية البسيطة هى عناصر الحياة من غذاء واستنشاق وتناسل فاذا جاعت الخلية بحثت عن الغذاء واذا نضجت أخذت تتناسل ٠

فاذا تعقدت الحياة تعقدت دوافعها ، معنى ذلك ان هذه العناصر البسيطة لم تعد تكفى للبقاء فان الحياة أصبحت ميدانا للكفاح ، فلابد من أسلحة أخرى تعين على الصراع ، لتضمن بقاء الفرد والنوع معا ٠

هذه الأسلحة هى الغرائز ٠ والفكرة العامة عن الغريزة مبهمة فهى فى عرف الكتاب تعنى الفطرة أحيانا ، والعاطفة أحيانا ٠

ولكن التعريف الحقيقى هو أنها دافع حيوى وجد عندما تعقدت طرق الحياة وتنوعت وسائل البقاء ويمكن تعريفها اذن بأنها « عادة اجتماعية » أى عادة يعتادها المخلوق ليكافح فى سبيل البقاء ، وهى فى الواقع نوع من الطاقة تستنفد فى سبيل حفظ الفرد والنوع ، وقد فصل منها علماء النفس ما يقرب من العشرين فأدى ذلك الى خلط كبير ٠ فقد مزج أكثرهم بين الغريزة والأثر الذى يسبقها أو يدعو اليها ، والنتيجة التى تنتهى اليها ٠ فالخوف ليس غريزة ، والحب ليس غريزة ، فالخوف انفعال يؤدى الى الهرب الذى هو غريزة كالاعجاب وطلب الجنس الآخر الخ ... يتضح من ذلك أن الغريزة

دافع حيوى محض ليس فيه خير ولا شر وهى فى أبسط مظاهرها نداء واستجابة، ويمكن أن نسمى هذا كما يسميه علماء الفيسيولوجيا «منعكسا reflex »، وأهميته فى علم النفس ان مدرسة «السلوكيين Behaviourists » تعد السلوك الانسانى أفعالا منعكسة مشروطة "Conditioned

معنى ذلك أن السلوك يستثار « اذا » وجد ما اعتاد استثارته . فان الغذاء ، اذا اقترن برنة جرس فان اللعاب يسيل ايذانا بميعاد الطعام فاذا رن الجرس بدون وجود الغذاء فان اللعاب يسيل على كل حال . وهؤلاء السلوكيون يقولون ان الحيوان المعقد الجوانب ما هو الا منعكسات معقدة الجوانب على أننا لا نستطيع أن نوافقهم على هذا فان المنعكسات فى الحيوان آلية محضة ولا يمكن أن تكون المنعكسات البشرية من هذا الطراز فيجيبون ان الاختلاف انما وجد لأن الدروب تشعبت والمسالك التوت ولأنه صارت هناك موانع تقف فى سبيل الآلية المحضة .

ولكننا نجيب أننا اذا صعدنا الدرج نحو الانسان نجد ان هذه الموانع التى تشيرون اليها انسانية اجتماعية ، أى أن المنعكس لم يعد بعد آليا فقد صار شيئا عاقلا ، وزيادة على ذلك فقد صار شيئا مبنيا على « الشعور » ، أى على احساسنا بوجود آخرين غيرنا لهم ما لنا من حقوق وواجبات ، وزيادة فى الشرح أقول ان الحيوان حين يجوع يفترس وحين تلوح له الأنثى يقتل خصمه فى سبيل الحصول عليها، أما نحن الذين نرتدى ثياب الآدمية فنحن نتمهل قبل أن نختطف اللقمة من فم غيرنا ونحن نستحى أن ننظر الى زوجة الجار كأنها مجرد هدف للتناسل مهما بلغت قوة الجمال عندها ، وقوة العاطفة عندنا .

على أننا لا شك نرتد الى الحيوانية فى أحوال خاصة كالحرب والغضب

فنفترس غيرنا فى سبيل اللقمة ، وندوس حقوق الجار ، ونصنع ما لا يحصى مما لا يليق ·

وعلى كل حال ، ما الذى حدث فى سلم التطور حتى صار المنعكس الآلى منعكسا عاقلا مدركا ؟

ان الانسان لم يعد انسانا الا حين أخذ يعرف أن هناك « علاقة » بينه وبين غيره ، وبينه وبين المجتمع على العموم ·

هذه « العلاقة » العاقلة الشاعرة المحسة المدركة هى فجر الشخصية ·

فلا يمكن أن نتكلم عن « شخصية » انسان لا يعاشر الناس ·

ولا يمكن أن نتكلم عن شخصية انسان يتفاعل بخاصية متغيرة من مجموع خصائصه ·

فالانسان ذو الشخصية (*) اذن هو آدمى علاقته بالبشر ثابتة من حيث أنها تفاعل ثابت ، أو غالب فى أكثر الأحوال ·

ولقد أنكر علماء النفس عن شخص أن يقال انه مرح وطيب بل يقال مرح طيب · يفهم من ذلك أن الخصائص التى تكون الشخصية هى وحدة متماسكة كالسبيكة ·

(*) من هذا يتضح أن الشخصية صفة انسانية محضة ويمكن تعريفها اذن · انها « الأثر الناشىء من تفاعل الخصائص الآدمية مع الوسط »

ومن جهة أخرى نجد السبيكة فى طرف ، والوسط فى الطرف الثانى فأيهما أهم فى تكوين الشخصية ؟ فلننظر فى محتويات الطرف الأول . السبيكة الانسانية : هذه السبيكة مكونة من عقل وعاطفة وخصائص موروثة وأمزجة ، ولقد عرفنا من أمر هذه السبيكة الكثير ولكنه بقى الكثير أيضا . وهذا المحصول الكثير هو ما انحدر الينا من أسلافنا وما لا نملك من أمره خيارا ، أى أننا لا حكم لنا عليه ، فهل تستطيع باخرة نصف بحارتها ظاهرون معروفون والنصف الثانى أشباح ، أن تخوض فى عباب الحياة سالمة ؟ بعبارة أخرى هل يستطيع النصف المعلوم التماسك والقوة حتى يقود السفينة بصرف النظر عن الأشباح الأخرى التى تعمل عملها فى الظلام ؟ لقد انصرف العلماء فريقين : فريق يقول بأن الوسط هو كل شىء ، وفريق آخر يقول : اننا نستطيع بالنصف المعلوم اذا سهرنا على تكوينه وتنميته وتوحيد أهدافه أن نتغلب حتى على الوسط ، وفريق ـ كالأستاذ برج يقول ان شعورنا « بهذه الأشباح والمحتملات والخصائص الوراثية » هو الذى يجب أن يجعلنا نشعر بالنقص فنبغى الكمال . ومن ثم كان تعريفه للشخصية « انها ذلك التعامل بين الوسط وبين امكانيات وراثية Hereditary Orientalists يعنى بذلك أننا لا نرث شيئا محددا ، وانما نرث اتجاها وامكانا واحتمالا .

فمن أجل تكوين الشخصية يكون من الأسلم أن نفترض وجود هذا الضعف قائما ، على شرط أن لا نعده مهانة ، بل حافزا ، ولا نحسبه قيدا ، بل دافعا للثورة على القيد .

قد نكون مغالين اذا افترضنا هذه المجهولات والامكانيات كأساس لبناء الشخصية ، وقد يسألنا عالم من علماء النفس : وأين أثر البنية ، وأين أثر الغرائز ؟ وأين أثر الغدد ؟ وأين أثر الهرمونات ؟ وأين أثر العقل بخصائصه الثلاثة (الاطلاعية والتأثرية والتنفيذية)؟

وأين أثر العقل بقسميه الواعى والباطن ؟ فأجيب وماذا نملك نحن من تكوين البيئة ؟ وماذا نعلم نحن من أمر الغـدد والهرمونات الا القليل ؟ وماذا نعلم نحن عن حقيقة العقل ؟

أليست هذه كلها امكانيات ومحتمـلات ومجهولات ؟ ان الذى نستطيع أن نؤكده هو أن للجسم الصـحيح القوى أثرا فى بنـاء الشخصية ، ولكن حتى هذا التأكيد معرض للنقد ، فكم من أجسـام هزيلة يكمن خلفها شخصيات فذة جبارة ! والذى نستطيع أن نؤكده عن الغرائز أننا نستطيع كبحها أو تحويلها ولا نستطيع تغييرها ولا خنقها • والذى نستطيع أن نقوم به نحو خصـائص العقل هو أن نجيد استعمالها •

فالأسلم اذن أن نفرض أننا بين طرفين احتمالات ووسط • أما الاحتمالات فهى اتجاهات علينا تحديدها وتوحيدها وتبين معالمها ، وأما الوسط فما يستطيع أكثر من أن يلون طبائعنا ويكسونا بثيابه ويسبغ علينا ظلاله •••

ولقد يكون من المفيد حقا أن نعترف بالنقص لنسـير فى طريق الكمال ، لقد يكون من المفيد حقا أن نعترف اننا نستطيع أن نجعل من اللاشىء شيئا ومن المجهول معلوما ، ومن الأشباح أجسادا ، ومن الأسس المتناثرة بناءا واضح المعالم • ولقد يكون من المفيـد حقـا أن نعترف أن الصراع مكتوب علينا ونحن أجنـة • فحتى أعضـاؤنا الداخلية الكبرى تتقاتل فى سبيل الاحتفاظ بأمكنتها والطفل معرض للزجر والنهى فى كل آونة ، واننا لو أصغينا الى أى نفس بشرية حتى أكثرها هدوءا لأصغينا الى صوت مدو ، ولكن الفرق بين الشخصية واللاشخصية أن الصراع الداخلى فى الأولى يؤدى الى نتيجة موحـدة كمجاديف المركب سواء بسواء قد تختلف اتجاها ، ولـكنها تتحـد

اتجاها ، وفى الحالة الثانية تتصارع أجزاء النفس معا صراعا يؤدى الى تبعثر الأهداف وفشل المساعى ٠

ان هذا الصراع موجه وجهتين ، داخل النفس وخارجها ، فعلينا مواجهة النفس ، وثانيا مواجهة الحياة ، ان الذى لا يواجه نفسه يغشها أو يدللها أو يهرب منها فاذا استطعنا أن نواجه أنفسنا بصراحة قررنا قبولها بعيوبها ونقائصها ٠ كما يرث الانسان قطعة أرض ملتوية الدروب ، كلها أخاديد ومرتفعات ومنخفضات ، فعليه وعلى المهندس معا أن يبنيا فوقها منزلا بطريقة تحجب هذه العيوب وتخلق من القبيح جمالا ، ولا نشك أن قبول النفس يمحو الشعور بالنقص ، وليس الشعور بالنقص عيبا بل العيب تغطيته بطرق غير لائقة ، أو النظر اليه بجزع سرعان ما ينقلب حقدا على العالم ، أو التفنن فى مداراته بطرق تكشفه وتجعله سخرية ٠ ويمكن لكل انسان أن يخلق من نقصه شيئا نافعا ، فالفضولى يستطيع أن يكون مخبرا ماهرا ، ومحب العزلة يستطيع أن يكون عالما أو شاعرا أو فيلسوفا وهكذا ... وقبول النفس كذلك يضمن انصرافنا عن ادمان النظر فيها وفى عيوبها ، انه من المؤلم حقا أن يدور الانسان فى غرفة ممتلئة بالمرايا، وان يدور بها كل يوم، ان هذه المرايا لو تحولت الى نوافذ ، لوجدت النفس آفاقا جديدة وظلالا جديدة ، وهذه الآفاق والظلال هى العثور على العمل والصديق ، فهذان يصرفان النفس عن التفكير فى همومها ، ويجعلانها تعتقد أن هذه الهموم أشياء طبيعية عارضة كالغمامة فى السماء ٠ فنحن لا ننظر الى الغمامة كحالة ثابتة دائمة ، بل ننظر اليها كما ننظر الى حجر يعترض طريقنا فننحيه برفق أو ندور حوله ثم نمضى قدما نحو أعمالنا وأصدقائنا ، ولا أعتقد أن هناك مؤثرا فى شخصيتنا كأصدقائنا ، ففيهم من هم أعظم منا ، وفيهم من هم أقل ٠ الأولون يجعلوننا ننسى غرورنا، والآخرون يجعلوننا نحمد الله على نعمه ، واذا أحببنا صديقا نعترف بتفوقه ،

فقد رضينا بالمكان الثانى بالنسبة له ٠ وهذا هو الايمان فى أبسط صوره ٠

هذه هى مواجهة النفس فلننظر فى مواجهة الحياة ...

يرسم Menneken فى كتابه « العقل البشرى » صورة فذة لهذه المواجهة فهو يسمى الوسط « بالموقف » situation ليشعرنا بأننا لا نواجه موقفا بعينه كل يوم ٠ فالناس ثلاثة أصناف : صنف يواجه ، وصنف يهرب ، وصنف يدمر ٠ أما المواجه فهو الذى يحسن الملاءمة والانسجام ٠ وأما الهارب فعصبى أو مجنون ٠ وأما المدمر ، فهو شخص يدمر نفسه أو يدمر الوسط ليتخلص منه وهذا هو المجرم أو المتمرد الثائر أو العبقرى ٠ على أن هنالك صنفا لا يقوى على المواجهة بل يحول هروبه الى عمل فنى يدارى به فشله ... ذلك الشخص هو الكاتب أو الشاعر أو الفنان ...

علم النفس فى خدمة الأدب

يمكن أن يقال ان علم النفس استقل بنفسه وصار علما خاصا قائما بذاته فى أوائل القرن الماضى ، والسر فى ذلك أن علم النفس لم يكن تحدد بعد ما هو . والذى لا حدود له لا يدعى استقلالا . والذى لا يعرف بالضبط عم يبحث وفيم لا يستطيع أن يقوم على دعائم ثابتة فقد كان المفهوم أنه يبحث فى النفس . والنفس ما هى ؟ لا أحد يعرف . ثم قيل بل يبحث فى العقل . والعقل ما هو ؟ لا أحد يعرف . وقيل بل يبحث فى السلوك الانسانى . وهذا التعريف انما هو هرب مما نجهل الى ما نعرف . ولكن القوم ما لبثوا ان عادوا الى تعريف علم النفس الى أنه علم العقل رغم ما اكتنف كنه العقل من غموض . ولعل السبب فى ذلك هو ديكارت الذى جعل بأبحاثه المكان الأول فى الوجود للعقل وحده . وساعد على ذلك ظهور شاركو وتلاميذه الذين أثبتوا ان العقل شىء معقد ملآن بالمجاهيل وان العلم ينتظر الرجل الذى يرسم لهذا العقل خريطة صحيحة . وشىء ثالث نبه الاذهان الى طبيعة العقل وأهميته وذلك هو ما حدث فى النفوس من الالتواء والشذوذ ، بسبب الاحداث والحروب والكوارث العالمية .

فلا عجب أن ينتهى الادب المباشر الى أدب رمزى ، وذلك ناشىء من اختفاء العقل السليم البسيط وظهور أغوار من العقل كانت هادئة فانتزعتها الحوادث الى السطح وجعلت لها أهمية كبرى وبدلت لون

الكتابة تبعا لتلك الاغوار التى صعدت الى السطح ... أعنى بهذه الاغوار العقل الباطن . ولا أعنى بذلك أن العقل الباطن لم يكن معروفا من قديم . كلا بل كان معروفا . ولكن فرويد وحده هو الذى شرح أهمية العقل الباطن وخفاياه وامكانياته وقواه الديناميكية . وبحث علم النفس بحثا قائما على الاستقراء العلمى المنطقى المنظم . ومن هنا يعتبر فرويد أول من جعل علم النفس علما قائما بذاته .

ولقد سبق فرويد أستاذه شاركو اذكان يعالج العصبيات بالتنويم، فانتقل الأمر الى بحث ما هو حادث فى داخل تلك النفسيات التى اذ اتضح بغير جدال أن العقل طبقتان واعية وغير واعية . وأما غير الواعية فهى أهم من الواعية . وانها لجد جديرة بالتحليل والتعليل والشرح والتقصى . وأهميتها الكبرى تتوقف على أنها مجال صراع فظيع ، بل أكثر من لون واحد من الصراع . كأنما العقل الباطن مرجل يغلى . وهذا هو السبب فى تلك القوة الديناميكية الهائلة التى تنطلق من كبتها فتحدث التشنجات وغيرها من أعراض الهستيريا .

واذا كان لفرويد فضل فهو فى اكتشاف هذه السيكولوجية الديناميكية التى غطت على السيكولوجية القديمة ، الاستاتيكية ، التى لم تكن تعلو على عوامل سلبية هادئة تمشى من سبب الى مسبب . وليس قصدى الآن أن أتحدث عن فرويد ولا عن العقل الباطن ولكنى أريد أن أصل الى نقطة واحدة هى أن العقل طبقات وأن هذه الطبقات فى حاجة الى استكناه أغوارها كطبقات الارض سواء بسواء .

وهذا ما حدث بالضبط فان العلماء المحدثين من مدرسة فرويد وغير مدرسته أخذوا يسبرون أغوار هذه الطبقات ويطبقون ما علموا على كل ما يتصل بالسلوك الانسانى . ونعترف أنه لازال أمامنا الشىء الكثير ، ولكن أكثر تقدمنا جاء فيما يختص بالفن وخاصة بالأدب .

فقد كنا نفهم الادب فهما بسيطا ، كنا نعده « التعبير الجميل عن عاطفة جميلة » أو بعبارة أخرى تعبير وجمال ٠ أو تعبير صادق عن شعور صادق ... ما أبسط هذه التعاريف ٠ وما أبسط الأدب اذن ٠

وما أكثر ما يتقارب الادباء شبها اذا كان الأدب هو هذا الشيء البسيط ٠ وما أبسط أن يتصور العقل وحدة Entity يشعر ويفكر ويريد فى مسطح واحد وبوعى واحد ٠

لا شك أن هناك « طبقة » تلى الوعى فما الرأى فيها ؟ الرأى فى الالهامات التى نلهمها ونحن بعيدون عن الوعى اليقظ والتفكير الحاضر؟ ما الرأى فى ذلك العقل الثانى الذى كشفه التنويم وجعله حقيقة لا جدال فيها ؟ ما الرأى فى الذاكرة ٠ ما الرأى فى الدهليز الموصل بين العقلين ؟ لو أردت تشبيها بين نظرتنا للعقل اليوم ونظرتنا له سابقا ، لمثلت بالمحطة القديمة فى بساطتها والمحطة المعقدة الحديثة بطبقاتها المتشابكة المتعددة وسككها المتنوعة ، ومواصلاتها المختلفة ٠ ان ما يحدث فى محطة كهذه صعودا ونزولا ، ذهابا وايابا ، شبيه بما يحدث فى العقل الانسانى ، عندما نستعرضه على ضوء العلم الحديث ، ونحن نسمى ذلك الزحام ، وتلك الاتصالات ، التداعى الحر free association

هذا التداعى هو أول مفتاح للفهم ٠ فان هذا الارتباط ، هذه الصلات بين المعانى والالفاظ والاخيلة ٠ هذه الحركة traffic هو ما يستعمله الايحاء suggestion فى مختلف مظاهره ٠ فى معاملاتنا وآدابنا وحياتنا على الاطلاق ٠ لفظة منى اليك تنطلق الى وعيك ، فتمر بالدهليز أو السلم ثم تنحدر الى الباطن فتتزاحم ـ تتداعى ـ حولها الالفاظ المتشابهة ، أو تستيقظ بواسطتها الحوادث النائمة فتوحى اليك فتتكلم أو تعمل ٠ هذا هو الايحاء الذى يعمل من

طريق التداعى الحر . وميزة الأدب الحديث أنه استغل هذه الظاهرة أوفى استغلال . وقد يقال انه تجاوز حدوده عند بعض الأدباء المحدثين وسمى عندهم « الاستثارة » Evocation أى أنه يلقى اليك بالكلمة المفاجئة كقنبلة ذرية صغيرة فيحدث عندك ما يسمى « لفتة ذهنية » فلا يستثير عندك كلمة فحسب بل صفحة وصفحات . وحادثة وحادثات ويجعلك لتوك تسبح فى عالم من الصور والتأملات .

وقد يقال ان هذا الايحاء قديم وأن العرب عرفوه وغير العرب استعملوه فى كتاباتهم من قديم ، فهذا شاكسبير مثلا يقول فى ماكبث:

« هذا هو النور يكثف وهذا هو الغراب يضرب بجناحيه الى الغابة القائمة كالعقاب » .

ان ماكبث هنا يتكلم بما يوحى بسواد الضمير وظلام الجريمة وقتام الحياة .

ولكنه تدبيج صريح .

الكلمات تحمل ما يطلب منها وتؤديه فى اللون المناسب ، ولكن الايحاء عند المحدثين يجعل اللفظة تؤدى أوسع وأكبر من معناها حتى لكأن اللفظة روح كبير مجنحة ، فهذا مثلا قول ستيفن سبندر فى مثل موضوع شاكسبير :

اطلال خربة فارغة .

تنسج الرياح .

هذا الكلام الموجز يوحى بالفراغ ثم بالاشباح ثم بالعناكب ...

ولقد يعترض فيقال : اذا كان الكاتب لا يرسل الكلمة بمدلولها المعروف فكيف اذن نتفق جميعا فى فهم ما يعنيه • أى انه اذا خالف المنطق المألوف فكيف نتابعه فنقول : ان الكاتب هنا يهمه تداعى الانفعالات قبل كل شىء • وليس للانفعالات منطق ولا نظام • واذا كان الأدب شعورا انسانيا مشتركا فالشاعر مجيد بقدر ما يثير انفعالات انسانية مشتركة • وهو غير ظافر بمكان ممتاز ، اذا لم يوجد غير استثارة انفعالات غامضة خاصة به هو ، ومفتاحها عنده وحده •

وهذا هو أكبر النقد الموجه للأدب الحديث ، على انك اذا تلوت القصيدة الخالدة « الارض الخربة » للشاعر اليوت • اذا قرأتها بامعان تاركا عقلك يسبح فى ذلك « الضباب المتعمد » ، كما يقول مالارميه، فستشعر بعظمة هذا الشاعر لانه أول من استعمل الطريقة الجديدة من الشعراء المحدثين ، وقد أرخت هذه القصيدة عصرا جديدا فى تاريخ الشعر العالمى الحديث ، عهدا استغلت فيه قوى العقل الباطن فى الأدب أقوى استغلال •

على أن هذه القصيدة فوق فضلها السابق استحدثت أمرا جديدا على الادب الا وهو التركيز الشديد • على أن هذا التركيز المستساغ اللائق الجميل عند اليوت قد يساء استعماله عند غيره فيشبه البرتقالة التى نأكلها بعد ذهاب عصيرها •

على أن خلاصة ذلك ان الأدب الجديد هو الحصول « على أكبر النتائج بأقل الوسائل » ... وقد تكون المبالغة فى ذلك سلاحا ذا حدين •

اننا نستخدم علم النفس فى الايحاء والتحليل ومعنى ذلك ان

الشعر صار فنا ايحائيا والنثر فنا تحليليا ، وان لم يخل بالطبع من ايحاء ٠

والايحاء والتحليل معناهما ان فن الادب ليس أمرا بسيطا سهلا كما كان مفهوما ٠ فالشاعر عليه ان يحمل مشعلا يغوص به فى الاعماق ثم يرتفع مستكشفا فهو حينا باحث فى منجم وحينا محلق فى أعال مجهولة أى أن الحدود الضيقة الموروثة الرتيبة التى رسمتها الكلاسيكية قد قضى عليها ٠ وعلى النثر أن يثور نفس الثورة ٠ والثورة قائمة على انه من الآن يجب على كل فن ان يبحث الامور فى تفاصيلها لا فى جملتها ٠

ولنفصل الآن بالضبط معنى كلمة « الايحاء » suggestion فالكلمة الانجليزية تحمل معنى أبعد من مجرد الايحاء ٠ انها تعبر عن الاقتراح ٠ عن محاولة الاقناع ، تعبر عن استثارة ، عن بعث همة وايقاظ عزيمة ، وهى تتوسل الى ذلك بكل ما يتوسل اليه الانسان حين يحاول التأثير والاقناع ٠٠ تتوسل بالرمز والتلويح والهمس ٠ تتوسل ببعث الذكريات والخواطر الغالية ٠ تتوسل لما يستعمله النوم من تخدير الوعى ، تصنع ما يصنعه أهل الدعاية بالتكرار ٠ وأخيرا تضرب على أوتار حواسنا بالايقاع الموسيقى ٠ كل هذه العناصر تتوافر فى الشعر القوى ، ففيه الرمز ، وفيه الذكريات البعيدة وفيه التكرار (فى القوافى والتفاعيل) وفيه الموسيقى بكل الوانها ٠

ويعرف آودن الشعر بانه «ذلك الكلام الذى لاينسى Memorable speech ٠ وقد ينطبق القول على الشعر والنثر معا ، والفرق بينهما أن الشعر معادلة جبرية انسانية ، والنثر مسألة حسابية مفصلة » ٠

على أن فرويد أثار ضجة هائلة باعتباره الاديب مريضا بالعصبى Neurotic ودليله على ذلك :

(١) ان الاديب طفل كبير . أى لم يفطم سيكولوجيا، وذلك لتعلقه بأسباب الماضى وتشبثه بذكرياته ، واصراره على بقاء القيد الوالدى قائما .

(٢) انه شخص لم يستطع أن يلائم بين الحقيقة والواقع فهو اما يهرب أو يعوض أو ينطوى فى عالمه الخاص . فليست قصة هاملت غير مركب أوديب، وليس شعر بودلير كله الا تفصيلا لمركب أوديب.

ولكننا فى عصرنا الحالى نحاول أن نجنب الشعر والشعراء الهروب والانطواء ، ونحثهم على مواجهة الواقع ، والنزول الى الميدان الحقيقى، والسؤال هو : كم من الشعر سيظل شعرا حقيقيا عند ما تفلح هذه المحاولة ؟!

رسالة العقل

تطور العقل البشرى

مشكلة العقل البشرى مشكلة قديمة جدا ، فمن أقدم العصور والفلاسفة يحاولون أن يحددوا كنه ذلك « الشيء » الذى يميز الانسان عن كل ما عداه من المخلوقات ، حقيقة أن الانسان من يوم أن وجد على الأرض أخذ «يفكر» حتى يمكن أن يقال أن هذا التفكير هو الطابع الانسانى الأول ولكنه كان يفكر فيما حوله ويستعرض ما يدور بنفسه ويترجم ما يبدو له حسبما تقتضيه حفظ الذات وحفظ النوع • أما التفكير فى طبيعة ذلك « الشيء الذى يفكر » فشيء حديث العهد جدا بالنسبة لعمر الانسان على الأرض وقد تم فى مراحل تتبع تطور البشرية ومنصبا فى القالب الذى جرت به البشرية فى عهودها المختلفة مثال ذلك أن طبيعة العقل الهمجى طبيعة شيطانية محضة ونحن لا نزال نمارسها فى أكثر أحوالنا ، ومنا من لا يمارس غيرها ، ثم تتلوها طبيعة العقل التبريرى وهو العقل الذى يعمل حسب نوازعه ثم يأخذ فى « تبرير » ما صنع • فهو عقل متميز محاب لما أكمن به أو أحبه أو اعتقده • ذلك هو العقل البشرى فى فجر المدنية • وما زلنا نمارس هذا النوع من التفكير كثيرا فى عهدنا الحاضر وقد جر علينا آلاف النكبات والكوارث ، ويتلو هذا العقل فى سلم التطور العقل السيكولوجى ، وهو الذى يحلل ويتعمق فى

الفهم ، وأخيرا العقل الموضوعى أو العلمى ، وهـو الذى ينظر الى الأشياء من حيث هى ، بقطع النظر عن أى شىء آخر ٠

العقل البدائى : كان الانسان الأول يعيش فى الظلمات ولذلك كانت أكثر رؤآه أشباحا ، فاذا جلس يفكر فى ذاته أحس بشبح فى داخله يمشى ويقدر على التنقل ، ويبدو اليه فى الأحلام ، وهذا أول احساسه لشىء فى كيانه يحى ويتحرك ، وقد دعا الاستاذ تيلور ذلك الشىء « الروح الشبح » وهو وصف موفق ٠

ويعتبر هذا الدور فى تطور العقل من حيث أنه جزء من الوجود غير منفصل عنه (animism) غير أن الدور الثانى ما لبث أن جاء حين آمن فلاسفة اليونان الذريون بقوة ذرية للعقل تجعـله منفصـلا عن الوجود وان كان لايزال لاصقا بالمجتمع ومندمجا فيه ولعل العقـل الانسانى فى القرون الوسطى كان من هذا الطراز أما الدور الثالث فهو الدور الذى يلى القرون الوسطى على وجه التحديد ٠ وهو دور العقل المستقل الذى انفصل عن الوجود وانفصل عن المجتمع ، وهو الذى وصفه ديكارت وتحدث عنه وسماه العقل المحصن pure reason

ولكن هذا العقل المستقل المنفصـل لا يلبث أن يشعر بحاجتـه للمجتمع ، فيندمج فيه مع المحافظة على استقلاله وهذا هو العقـل الحديث ٠ وأحسن تعريف له « أنه ذلك الميزان الذى يمكننا من السير فى ركب الحياة » "The adjustor" على أن ذلك الميزان الآدمى ليس آلة ، بل وحدة تتكون من ثلاث عناصر : الشعور ، والذكاء ، والارادة ، وهذه العناصر مندمجة معا اندماجا كليا ، كاندماج الموج فى الموج ٠ أى أننا نشعر ونتعقل ونريد فى وقت واحد ٠ وقد شبه أحد علماء النفس العقل الآدمى بقطار وقوده الشعور ، وتعقله السائق ، وارادته الفرامل ، أما الشعور فهو الخصيصة الآدمية الكبرى ومعناه الحقيقى

« الاحساس بوجود آخرين لهم من الأهمية والحقوق ما لنا » وهو الآخر مركب من عنصرين : المعرفة ، والانفعال ، أما المعرفة فمعرفة علمية اخصائية ، ومعرفة سيكولوجية مبنية على الاحاطة والملاحظة والشمول ، أما الانفعال فهو الحماس الذى يصاحب المعرفة ويلهبها ويستحثها للعمل •

أما الذكاء الآدمى فمكون من العناصر الآتية :

الاختيار ، والمقارنة وادراك الفروق ، واستخلاص النتائج ، والتحليل ، ثم التركيب أى الخلق •

أما الارادة فمقترنة بالعمل وكيفية العمل ، هى السلوك الانسانى Behaviour، ونحن فى هذا الباب لانزال نجرى على الطريقة الحيوانية من حيث التجربة ، والاهتداء بالخطأ والصواب والأصح أن نسميها طريقة التحسس والتنقيب •

ولكن الفرق بين الانسان والحيوان ، أن الانسان يتعلم ويعلم أما الحيوان فيحتفظ بتجربته لنفسه حتى لقد قال أحد علماء الحيوان أن القرد لا يقلد غيره كما هو شائع ومعروف ، بل يقلد جنسه ، وحتى الانسان يتكبر على تقليد غيره، ولولا وجد أفراد قلائل يسميهم دارون « أنواع جديدة » variation فى كل قطيع ، تفكر للقطيع وتقوده وتتطلع اليه ، ما أمكن تقدم الجنس البشرى ، عن طريق هذا التقليد الجبرى • ولقد أوجز روبنس خصائص العقل البشرى فى ميزتين ربط الأمور ببعضها ، عن طريق الاصالة أو عن طريق التقليد ، وربط الأمور يكون بالتمييز بين ما هو عام وما هو خاص ، ثم الانتقاء ، ثم التبويب ، ثم وضع الاسم على الشىء المبوب المختار المنتقى ، ثم ينتهى بعد ذلك الى خلاصة ما ، وهذا ما نسميه ربط

الأمور ، أما فى العقل الحيوانى فالأمور عامة مختلطة ، والنتائج لا تستخلص عن الطريق السالف وانما عن طريق التجربة العملية المحضة .

ولكن نتساءل أخيرا ما سر هذه « الكينونة » التى تختار وتنتقى وتربط ؟... هل هو وحدة مستقلة ؟... هل هو ظاهرة فيسيولوجية؟

يقول برجسون ورأيه من أهم الآراء ، أن العالم دوامة متغيرة فى كل لحظة وأن هذه الدوامة التى تنشد من وراء التغيير كمالا وعظمة ، لا يمكن أن تكون مجرد آلة أتوماتيكية ، بل لا بد فيه من يد ـ كيد الحائك ـ حين يقطع الثوب قطعا ، ليستطيع الحصول على شىء كامل منه أخيرا ، وبينما هو يقطع الثوب يسمى كل قطعة باسمها. وبعدما ينتهى من حياكة ثوب يعلقه فى مكان ما ، وقد كتب عليه اسم صاحبه ... ولا شك أن العقل الانسانى انما ساعد على ذلك اختراع الكلام .

ولكن هل سلم العقل الانسانى بعد كل ذلك من طبائعه الاولى ؟ كلا فان الانسان الاول كان يؤمن بقوى خفية، يستسلم لها ولايناقشها فنشأت فيه العقلية ذات المعتقدات التى لا تناقش Uncritical belief ونشأت على أثر ذلك « البنود » التى يضعها القوى للضعيف ليطيعها طاعة عمياء ، القوى استسلم للقوى الخفية وخضع لها . والقوى يشرع للضعيف ليؤمن كما آمن ويستسلم كما استسلم . وهذه البنود هى « التقاليد » وأقرب مثل لها النجاسة والطهارة ، وما هو مناسب للأخلاق ، وغير مناسب . هذه العقلية البدائية لهاتين الصورتين ظهرت فى تاريخ العقل مرتين ، المرة الأولى فى الانسان الفطرى ، والثانية فى العصور الوسطى ، ونحن فى عصرنا الحاضر لم نتخلص منها مطلقا ونحن نعانى منها ومما انحدر الينا منها على

الأجيال ، عناءا شنيعا وعبودية أشنع . ومن العجيب أن أكثر التقاليد التى نمارسها اليوم بغير جدال ولا مناقشة انحدرت الينا من الانسان الأول ، وكان عهدنا بها أمس القريب .

ولكن الفترات التى جاءت بين ظهور هذه العقلية البدائية من حين لآخر لم تساعد على محوها ؟

حقيقة لقد قام فى عصر اليونان ما يسمى بالعقلية « التاريخية » ، وآية هذه العقلية أنها أخذت تناقش هذه المعتقدات ، أخذت تتحرر من القيود القديمة ولقد كان ذلك فى أعلى صورة عند سقراط ، ولاشك أن أفلاطون وأرسطو قاما بدورهما فى التحرير ، ولـكن الجميع لم يتحرروا من الاعتقاد بالقوى الخفية ، والأشباح الجاثمة وراء الطبيعة . والسبب فى ذلك أن العقل كان عند هؤلاء متفلسفا محدثا مجادلا ، وقد كان عليه أن ينزل الى عالم التجربة حتى يتكىء الى الحقيقـة ، وحتى تستطيع التجربة أن تبدد أشباح الخرافات ، ولكن الصناعات اليدوية كانت كلهـا بأيدى العبيـد ولم يكن من المتيسر أن تنزل الأرستقراطية الذهبية الى أسواق العبيد .

من هذا يتضح لماذا وقفت الحركة التحريرية للعقل جامدة ، ولماذا عاد العقل البدائى الى الظهور .

ان عقلية القرون الوسطى قسمان : قسم ينتهى بسنت أوجستين وقسم يبدأ بعده ، أما القسم الأول فكان فيه شىء من النور اذ كان عهدا تمتزج فيه الديانة بالفلسفة ، ولكن الفلسفة كانت تعتمد على السلطة فى اكراه الناس على قبولها . أما القسم الثانى فقد انصرف الناس فيه عن التفكير فى الأرض وأخذ الشيطان نفسـه يتطور ، فسمى نفسه « الخطيئة » ، وأخذت محاكم التفتيش تعقد وتحاكم من

ينحرف أى انحراف عن التعاليم المنشورة بواسطة مجلس القساوسة، ولكن شيئا هاما نشأ فى وسط هذا الظلام الذى أغلقت فيه دور العلم ، وأحرق فيه العلماء أو سجنوا ، ذلك أن هذه التعاليم غذت الغرور الانسانى ، فاعتقد الانسان انه محور الكون ، فالسماء تتدخل فى شؤونه ، وتراقبه وتحاسبه كل لحظة من لحظاته ، ثم ان الشيطان ليس له من هدف الا اغواء هذا الانسان ·

اذن فالانسان شيء هام جدا ... نفض الانسان عنه فجأة عبارة القرون ، وأخذ ينادى بعظمة العقل الانسانى ، وأخذ كذلك ينادى بالسيطرة على الطبقة ، ولقد صدرت هذه النداءات من جهات متعددة على ألسنة عباقرة ظهروا فجأة ، كل فى مكان ·

ولا شك أن أعظم هؤلاء ـ من حيث تحرر العقل وتطوره ـ هو « باكون » فقد كان أول من دعا الى الطريقة العلمية التجريبية وفصلها وبينها فى كتبه فكانت أساسا للعقلية الحديثة ومنهاجا أدى الى التطور الأخير الذى لا يزيد على قرنين من الزمان · وخلاصة آراء باكون ، أنها الدعوة الى استعمال خصائص العقل الانسانى من حيث التبويب والمقاربة والتحليل واستخلاص النتائج بطريقة تؤدى الى عقلية خلاقة ، وقد دعا الى التحرير من عبودية الماضى ، قائلا أن نهر الزمن لا يحمل فوق سطحه الا ما خف ولم يكن غاليا ، أما الغالى الثمن فقد رسب فى القاع ·

ولكن هذا التحرير العلمى العملى كان يمشى جنبا الى جنب مع التطور الاقتصادى ، فكان من اللازم أن يحدث شيء جديد · ذلك هو أن يصير العقل العلمى اجتماعيا اقتصاديا فلنا أن نسمى العقل الذى نتوقعه فى المستقبل العقل الاجتماعى social mind وهو يرمى الى

شيئين : الأول الملاءمة بين العقلية والفردية والحالة الاجتماعيـة ، والثانى اقرار النظام الاقتصـادى economic Structure وفى كتاب روبنسن الذى أشرنا اليه ، يقول أنه لاصلاح العالم يجب أن نصرف النظر عن كل ما جربناه سابقا فأفلس ، لقد جربنا التأثير بواسطة التخويف والعقاب فأفلسنا ، وجربنا التعليم فلم نخلق منـه غـير أرستقراطية ذهنية وجربنا الوعظ فلم يجدنا شيئا فبقى علينـا أن نجرب اصلاح الذكاء الانسانى . اننـا لانزال نفكر بعقـل الانسان الهمجى اننا لم نتخلص بعد من الخرافات والمعتقدات التى تحتل من نفوسنا مكانا مقدسا ، ولأننا لانزال استبطانيين نعيش فى أخيلتنا بدل أن نستعمل حواسنا . ونحن من أجل ذلك ندافع بكل تحـيز عن كل ما يتعلق بمعتقداتنا الثابتة . ونحن نتحيز لكل ما نحب ومن نحب . هذا القانون قانون التمييز العام ، انحدر الينا من أسلافنا ولم نتخلص منه الى اليوم ، وهـو السبب فى الانقسامات والحروب فان الانسان يتحيز لقومه ويتعصب لعشيرته ولدينه ، ومن ثم يكون حكمه على الأشياء خاطئا لأن الحكم مصبوغ بالعاطفة المتحيزة ولاشك أننا نتحيز للقديم ونجـل الماضى ونحن جميعـا مؤمنون بالفطرة ، محافظون بالفطرة .

ونحن لانزال نفكر بعقليـة القرون الوسـطى من حيث الخطيئة والعقاب والثواب ومن حيث الاستسلام المطلق لما تمليه هذه العقلية ، ومن حيث أننا لا نجد مخرجا ولا خلاصا دون هذه الطرق .

على أن العقل الذى ندعو اليه هو العقل العملى التجريبى العـلمى الاقتصادى أى العقل الذى يعلم أن مهمته هى الاتجاه نحو عالم جديد وأن عليه أن يواجه مشاكل العالم علما واقتصادا . وانه اذا لم يفلح فى هذا الاتجاه فانه لا شك يصل الى النهاية التى رسمها الاسـتاذ

منيكن فى كتابه « العقل البشرى » فقد رسم لنا صورة عملية جميلة، بين فيها أن الانسان عليه أن يواجه موقفا دائم التغيير situation فان أفلح فى الموازنة فقد أفلح فى الحياة وسعد ، واذا لم يفلح فاما يحطم الموقف أو يمزقه أو يحطم نفسه أو يمزقها ، واذا لم يستطع التحطيم أو التمزيق فانه يهرب ٠ واذا لم يستطع هذا ولا ذاك فانه ينكر الفشل ويوجه جهوده الى عمل فنى يستر به فشله ويدارى به عجزه عن مواجهة الحياة العملية ٠ من الطراز الأخير أكثر الفنانين والكتاب والشعراء ٠

رسالة الشباب

اذا تكلمنا عن الشباب اليوم ، فاننا نتحدث أولا عن أخطاء أكثرها بل جلها أخطاء المجتمع .

وأقصد بالمجتمع ما به من معلمين وقادة وآباء وأمهات ، ماذا صنع المجتمع لاصلاح شبانه ؟ الينا خلاصة لما صنع الى اليوم .

(١) **التعليم** ، قد أدى دائمـا الى ثقافة شـخصية ولم يؤد الى المواطن الصالح ، وكثيرا ما أدى الى المعرفة التامة ، ولكنه قليـلا ما أدى الى خلق شخصية سليمة .

(٢) **العقاب والثواب** ، لم يؤديا الى شيء فان السجون تفرغ وتمتلىء ، والمشانق تعلق ، والشر لم يبتعـد عن العالم والخـير لم تنزرع أصوله فى النفس مطلقا .

(٣) **الوعظ والحث على الأخلاق الحميدة** ، هذان أيضا لم يؤديا الى أى اصلاح فى الأخطاء الشائعة فالغالب أننا نمل الوعظ ولا نتأثر به الا اذا كان مهيئا فى قالب فنى تستوعبه النفس وينفذ الى القلب وبعبارة أخرى ان لم يكن ذلك الوعظ مؤديا الى اقناع قلبى فلا فائدة منه ، وحقيقة قد يكون الكلم البليغ مؤثرا ، ولكن تأثيره لا يعدو الساعة التى ألقى فيها .

(٤) **التعليم الدينى** ، انى أومن بالدين كعنصر عام من عناصر الاصلاح ويكفى أن نستعرض سير الأنبياء والرسل وما لاقوه فى سبيل الدعوة وما تجشموه فى سبيل الانسانية وما صادفوه فى حياتهم وهم يحاولون اصلاح العالم • يكفى ذلك تقويما للنفوس المعوجة وهديا للنزعات الضالة ولكن اضطرابات العالم ، والكوارث المتلاحقة قلقلت الايمان ونشرت فى العالم موجة من القلق وعدم الثقة ، جعلت المفكرين يفكرون فى عكاز جديد يستند اليه العالم الأعرج ويكون قوة أخرى بجانب الايمان تشد أزره وتسنده • هذا العكاز هو الاصلاح السيكولوجى وقد فصل ذلك الاستاذ شيللر فى كتابه « مستقبل الانسان » تفصيلا قيما فليرجع اليه من يريد •

على أن الاصلاح السيكولوجى يجب أن يبدأ من أسفل الدرج ليصل الى أعلاه ، على أن الدراسة السيكولوجية لا شك تقتضى الالمام التام بعلم النفس ، ومن لم يستطع الالمام التام فعليه على الأقل بالبديهيات • فلنذكر هنا ان الآلة الانسانية تتكون من وقود وسائق وموتور • فلنبدأ بالطفل ، فهو كله وقود تقريبا ، والعقل الذى عنده لا يعدو بضعة خصائص جنسية موروثة • أما الموتور لدى الطفل فشىء غشيم صغير تسيره العاطفة ويمكن أن نسميه العناد ، أو التشبث أو الانانية أو ارادة القوة • فاذا ضفنا لذلك الخيال وأحلام اليقظة اكتملت لنا صورة الهمجى الصغير المسمى بالطفل •

فيتلخص علاج الطفل ــ بناء على هذه الصورة ، بمعالجة الارادة الجامحة ، أو بالعاطفة العاصفة ، وأهم ما فى عواصف الطفولة الغضب والخوف والميل الى الهدم • ولنعترف أن المرمى ميال دائما الى كسر شوكة العناد • وقد اختلف المربون فى هذا الباب فمنهم من أشار بالعنف ومنهم من أشار بضده • والرأى الحديث لا يميل الى هذا

العنف ، لانه هدم بغير بناء ، ويميل بالأكثر الى بناء شيء يقوم مقام العقل ، ليقاوم ذلك التيار الجارف • ان العقل فى دور الطفولة كما بينا لا يعدو بضع خصائص وراثية ، فأى شيء نستطيع أن نقيمه مكانه ، حتى يتم نموه ونضجه • « العادات » وصدق من قال : «العادة تكون الفكر ، والفكر يكون الخلق، والخلق يكون القدر » فبناء العادات هو الذى يجب أن يجرى بلا هوادة ويتم بلا رحمة ولا شفقة ، وقد نصح أكثر العلماء ، بشأن العاصفة التى أشرنا اليها فى نفس الطفل انها من الممكن تشتيتها بتوزيعها على مجهودات مختلفة ويمكن كذلك تحويلها ، فان الصفير فى الخطر او الخوف يمكن أن يتعود اصطناع المرح والشجاعة ، فالواقع ان اصطناع المرح يذهب جانبا كبيرا من الحزن ، ولا يخفى أن الصفير ـ أى ادعاء عدم المبالاة ـ يعين على الاحتمال والشجاعة •

وأعود فأقول ان الطاعة العمياء ، فى تكوين العادات أثناء الصغر ، نوع من العبودية يؤدى الى حرية عجيبة فيما بعد • فلو اننا استعرضنا العقل البشرى كطريق لوجدنا أنه مكون على الأكثر من طرق محفورة ، نقشتها يد المربى أو البيئة ، هذه الطرق هى العادات • ولو اننى وثبت من الكلام عن الطفولة الى الشباب ، فذكرت بعض أخطائه ، كقلة ضبط المواعيد ، وعدم الثبات ، والكذب وغير ذلك لوجدتها لا تخرج عن انها « عادات » ساء تكوينها فى الصغر •

حسبنا هذا القدر عن الطفولة فلنمر الى مرحلة خطيرة جدا • ألا وهى اليفاعة أو المراهقة ... فهى الدهليز الذى يؤدى توا الى الشباب ولكننى قبل أن أمضى فى هذا الدهليز أريد أن أتحدث فى الأثر الناشيء من معالجة ارادة القوة بالعنف والاخضاع • أو بضد هذا وهو الملاينة المتطرفة • ان الحالة الأولى تؤدى الىصراع conflict والحالة

الثانية تؤدى الى التدهور والفساد delinquency الطفل فى الحالة الأولى ثائر منطو على نفسه وأن يكن هادئا فى الظاهر ، وفى الحالة الثانية ينشأ الطفل اتكاليا ويشب عالة على المجتمع . ولما كانت تربية الطفولة تتلخص فى أمرين : اعداد شخصية خالية من العقد ، واعداد شخصية غيرية ، فكثيرون من الأطفال يخرجون من الطفولة بالنقيضتين فيتعرضون لكل الكوارث النفسية الممكنة .

هذا هو الدهليز ، ولكن لدى ما أسميه دهليز الدهليز ... أى المرحلة التى تسبق المراهقة، وهى التى يتكون فيها الحكم reasoning المرحلة التى نعلم فيها أولادنا كيفية استعمال العقل ، ولما كان أكثر المنطق الذى نستند اليه متحيز ، فان الخطأ يجىء من هذا الباب أكثر من أى شىء آخر . والغالب اننا نخطىء فى حل مشاكلنا العقلية بسبب هذا المنطق المتحيز . وهذه مسألة عميقة الأثر فى تكوين عقلية الشباب ، ففى هاته المرحلة التى ندعوها دهليز الدهليز ، على المربى أن يكون فى الشباب العقلية التى تنظر الى الأشياء نظرة مجردة ، بعيدة عن أهوائنا ونزعاتنا ، ولقد يكون من المرانة أن يعقد مجلس عائلى لحل مشاكل الأسرة ، ويكون رائد أفراد العائلة المناظرة المجردة عن الهوى والنزعات الشخصية ... بهذه العقلية يجب أن يدخل الصبى الى المراهقة .

فى المراهقة يكون الفتى أو الفتاة فى عالم جديد ، فالغدد ناشطة، والحياة الجنسية أخذت تزدهر ، والدنيا مليئة بالمفاتن التى تغرى بالسيطرة عليها ... ومن هنا تكثر المخاوف المبهمة التى يأبى المراهق التصريح بها . فهو يرى كل شىء فى جسده جديدا ناميا فيتعثر ، ويلوح عليه عدم الانسجام . والواقع أنه يرى صورتين فى المرآة ، صورته الحقيقية ، وصورة رجولته فى مرآة ذهنه والصورتان تتعارضان وتتدخلان فى تصرفاته .

هذه الصورة التى تبدو فى مرآة الذهن لها أثر بعيد فى نفسية المراهق ، فانها تخلق ثورة دفينة وخاصة فى المنزل حيث تتعارض الصورة الذهنية مع الصورة التى يرى بها أهل المنزل فتانا أو فتاتنا. فالمراهق فى المنزل ثائر متبرم ولا يجد راحة الا فى المدرسة حيث جو النمو على اطراد النمو الحقيقى .

فعلى ذلك يجب الالتفات الى هذه الثورة الدفينة، وعرفان مصورها وحسن ترجمتها .

فاذا اتفق أن يكون المراهق قد خرج من الطفولة بعقدة وصراع ، فان الشباب سيكون جحيما تاما . وهنا يجب أن نقف قليلا لننظر الى معنى الجنس فى المراهقة . ان الجنس فى المراهقة خيال وتاليه وتقديس ومثالية . على أن الفتى بقدر ما يتخيل عن الفتاة ، فبينه وبينها نفور ، لأنه خارج من سيطرة أم ونفوذها، فهو يخشى الدخول تحت نير جديد . ومن هنا يتبين سر النزاع بين الشقيق وشقيقته فى المنزل بغير داع ولهذا السبب دعا المربون الى منع اختلاط الجنسين فى هذا الدور من التعليم لا من أجل المسألة الجنسية فقط لأنه قد اتضح أن كل ما يذكره المراهق عن معرفته بالمسألة الجنسية افتراء وادعاء ، وأنه قادر على الكلام فقط ، أما العمل، ففى دور الشباب حين يكون الذكر قد نظر الى الأنثى من زاوية جديدة ، خيالية وعملية . على أن لدور المراهقة هذه النواحى على العموم : عدم الاستقرار ، تعدد الأهداف ، التحرر من القيود لدرجة الاستهتار ، تشتت الفكر، الاستغراق فى أحلام اليقظة ، التعرض لمركب أوديب أو على الأقل لتثبيته .

فالأخطاء التى يمكن أن يخرج بها فرد ما الى الشباب هى :

(١) أنانية ممتدة من الطفولة (٢) صراع مبنى على العقد
(٣) استهتار وميل للهدم والتحدى (٤) اندفاع عاطفى خيالى

هذه هى بالذات أخطاء الشباب التى يجب الالتفات اليها ومحاربتها. واهمها فى رأيى الصراع بمسبباته ومختلف ألوانه ، فهذا الصراع هو السبب فى الشقاء الذى يخيم على نفوس الشباب فى هذا الجيل ، وهذا الصراع مقترن أشد الاقتران بتنوع الاهداف وتشتت المطامع والميول ، والضباب المتكاثف حول المرامى .

يبدو مما ذكرت أن الرجولة الناضجة ، هى الرجولة الخالية من الأخطاء السالفة . أى : هى سلامة من العقد ، وايجابية ، واتزان ، وغيرية ، اما سلامة الشاب من العقد ، فمعناها أن لا يكون الصراع عنده مرضيا ، مبنيا على قوى متضاربة مكبوتة ، وقد فصلت المؤلفة كوسجريف ذلك تفصيلا واضحا فى كتابها « سيكولوجية الشباب » فذكرت أن الصراع قد يكون بين الحقيقة والواقع ، وبين ما نتخيله وبين ما نحن عليه فى الحقيقة ، وبين فكرتين ، وبين عاطفتين ، وبين الرغبة والطلب وبين الروحانية والمادة ، وبين ما هو انسانى وغير انسانى ، وبين الذاتية والطاعة وبين القيود والحرية ، وبين فكرتنا عن نفسنا وفكرة الناس عنا .

وهذا الصراع مع الأسف ينتهى الى أمرين : (١) الشقاء الملازم ، (٢) تمزق الشخصية .

وقبل أن أصف العلاج لهذه الأخطاء أضيف كلمة عن الحب عند الشباب : فأقول أنه شىء جدى جدا فى حياة الشاب والشابة ، والعلاقة التى بين شاب وأول فتاة يعرفها قوية جدا وعميقة وهو يبنى على تلك العلاقة أهمية كبرى ويصاب بحزن بالغ يوم تنفصم .

على أن الانجليز يسخرون منــه ويسمونه calf love أى الحب العجول ! ولست من هذا الرأى ، ولا أميل الى السخرية بالحب فى دور الشباب فان آمال الحياة وما تتطلبه من الاستقرار تتركز عنـد الفتاة فى شاب يمثل أحلامها ، وعند الشاب فى فتاة تطابق أمانيــه المتخيلة ، فيجب أن لا نسرع بعدها النزوات ، ولكن المهم هـو أن نميزها من سطحيات المراهقة .

أما العلاج ، فهو : (١) على الشباب أن ينظر نظرة صادقة مجردة عن التحيز ، لنزعاته واهوائه (٢) عمل «ميزانية» للمطالب وتصفيتها بين حين وآخر لنعلم بالضبط ماذا نأخذ وماذا ندع (٣) على الشاب أن يتسم بطابع من المرونة ليس فيه ميوعة ولا تخنث ، حتى يمكنه أن ينسجم مع الوسط ، لان الشخصية تماسك وهـدف ، وفى الوقت ذاته تفاعل بين الفرد والوسط. (٤) على الشاب أن يعلم أن النجاح فى كيفية الوسيلة لا فى بلوغ الهدف ، وأن كثيرا من الاخفاق أنبل وأشرف من هدف متحقق (٥) على الشاب أن يعلم بأن هذه الأخطاء طبيعية ومتوقعة ، ولا يجب أن تعتبر مهانات نعاب عليها ونخجل منها ونداريها ونطليها بطلاء خادع كاذب .

هذا ما يجب على الشباب . أما ما يجب على المربى فهو أن يعلم أن من الأخطاء ما يمكن أن يستغل فيصير كمالا، أو أرفع من الكمال، فمن صفات المراهقة المثالية والحماسة وعبادة البطولة ، فيمكن أن تستغل هذه الصفات استغلالا كاملا على شرط أن لا تتحول المثالية الى صراع والحماسة الى اندفاع عاطفى جامح ، وعبادة البطولة الى هدم وموت ضمير ووصولية .

هذه هى أخطاء الشاب ، وواجبات الشباب وقد وجدنا أن أكثرها من صنع المربى ، وقد وضح لنا أن أغلبها امتداد لظل سابق ، فلنبدأ بتلافيها قبل وقوعها وهذا هو العلاج الواقى الناجع .

رسالة النقد

نتساءل أولا ، هل لدينا نقـد أدبى ؟ يكاد يكون الاجماع : لا • وحتى الذين يحررون هذا النقد فى الصـحف هم أول من يعترفون بأنه لا يدخل فى باب النقد ولا ينتمى اليه بصلة •

ماذا نسمى هذا العبث اذن ؟

الأفضل أن نسـميه « عرض » ، ويقابلهـا بالانجليزية كلمة Reviewing لنفصل هذا الهراء عن الجد المسمى «النقد» أو criticism واعتقادى أن السبب الاول فى ضياع حرمة النقد ، هـو الخلط بين الموضوعين على غير وعى • وهناك أسباب كثيرة لهذا الانهيار الأدبى، أولها أننا فى عصر قلت فيه القراءة الجدية والثانى النزعة المادية التى تسيطر على العصر فحتى استعراض الكتب لم يعـد استعراضا بل صار نصفه اعلانا ونصفه دعاية ، فانك تجد فى آخر الحـديث عن الكتب أين طبعت ، وأين جلدت ، ثم الثمن ، وأحيانا كثيرة جدا ، نقرأ حديثا عن الكتاب ، ونبحث عن اسم المؤلف فلا نجـده ، لان عارض الكتب ، له عقلية عارض الأزياء ...

والسبب الثالث ، السرعة أو « اللهوجة » على حد تعبير المرحـوم المـازنى ، فالعارض ليس عنده وقت ليقرأ ، فبالتالى ليس عنده وقت ليكتب ، وانه ليخيل لى أحيانا أنه قرأ صفحة فى أول الكتاب ، وصفحة فى آخره ، واكتفى بهذا ، ومن المحزن أن عرض الـكتاب لا يكون له

أهمية الخبر من حيث الأهمية والحيوية ، الا حينما يكون المؤلف من الذين لاسمهم دوى فى آذان الجماهير . وقد حاول أحد الكتاب الأمريكيين أن يفرق بين العرض والنقد ، فقال ان العارض متحدث متعجل ، والناقد عارض متئد ، وحاول آخر أن يفرق بينهما . فقال ان العارض يعطى صورة للكتاب أو الكاتب ، بينما الناقد يضع هذه الصور بين صور أخرى ، حتى نتبين على ضوء المقارنة قيمة هذه الصورة . وأخذ كاتب آخر يفرق بينهما بشكل أوضح فقال ان العارض صاحب كلام خاص لا يعلو على الخصوصية ، ولا على الغرض المباشر ، ولكن الناقد يخرج من الخصوص الى العموم ، ويسمو على الهدف القريب ، فهو هنا يستوى مع الفنان . ويعود كاتب آخر يقول أنك لا تخرج من العارض الا برأى ذاتى مبتسر ، بينما الناقد يجب أن تصل عبر أحكامه الذاتية الى ما يصح أن يكون دستورا أدبيا ذا مواد شاملة دعامة وخالدة الأثر . هذا الرأى الأخير هو رأى ريمى دى جورموز . على أن النقد هو ذلك الشىء الذى يخرجنا من عالم الثرثرة ، الى عالم القيم الباقية Permanent values ولا أذكر من الذى قال ، أن الفرق بينهما هو الفرق بين البوليس والقاضى ، أو بين القسم والمحكمة ، والمحنة هى فى أن هذا البوليس ، البوليس الأدبى جاهل أولا . وثانيا ، هو من الغرور ، بحيث يحتفظ بتحقيقاته فى ملفاته الخاصة ، بينما نحن فى حاجة الى من يحيل هذه الأوراق الى قاض تكون أحكامه بمثابة قوانين أدبية يرجع اليها بين الحين والحين . فأين هو هذا القاضى ؟ هو غير موجود على صفحات الجرائد والمجلات ، ولا فى الاذاعة ، ولكنه منطو على نفسه ضمن مكتبته وأسفاره يبنى أحكامه الصادقة على شيئين : الذوق الأدبى ، والثانى فهم دقيق للعملية الأدبية . وكيف تجرى فى أعماق الخاطر ، مبدأ ونضجا ونهاية ، وقد يكون هذا القاضى قد قرأ آراء القراء والشراح الذين سبقوه ، ولكنه لا يتقيد كل التقيد بآرائهم ومعتقداتهم لأنه يعيش فى القرن العشرين ، ولأن النقد فى هذا

الجيل لا يجب أن يسير على غرار المناهج القديمة ، ذلك لأن النقد مصاحب للوعى الانسانى ، مساير لتطور العقلية البشرية ، مماش حتى للمعتقدات الدينية ، فمن هذا يبنى القاضى الحديث أحكامه على عقلية العصر منتهيا الى ما يلائم ذوقه وتفكيره ، متخلصا من قيود القدم ، متخطيا أسرار التقاليد البالية ٠

هذا القاضى موجود ، ولكنه قليل ونادر ، وهو يؤثر أن يستقل بأفكاره وأحكامه ، مفضلا عزلته على الاندماج فى هذا الصخب الصحفى الذى أساء الى النقد ، ونزل به من حالق ، ولقد دعانى للمحاضرة عن موضوع النقد ، اننى قد عدت الى الكتب الحديثة فى النقد ـ رجعت الى « ابر كرومبى وريتشاردز ومرى وروبرت ليند » ، وكانت عودتى بالذات لاقتناعى بأننا فى زمن جديد ، يحتاج لوعى جديد ، وبالأصح زمن جديد ، ذى وعى جديد يحتاج لطراز من النقد جديد ٠ فما يكفى أن يقال ، ولو كان هذا أحدث ما يقال ، أن العملية الأدبية هى تجربة شعورية ، تندمج فى اللاشعور ، وأنها تدخل مفصلة الأجزاء لتلتئم فى الداخل ، ويضفى عليها ضباب اللاشعور وأحلامه وتدرجاته وامكانياته ثم تنتهى الى افضاء ٠٠

فعندنا من ناحية تجربة شعورية ومن ناحية أخرى « توصيل » Communication، وفى الوسط مكان العملية ونحن نعلم أن أغلبها يتم فى العقل الباطن بين الفكرة والعاطفة والظلال والايقاع ، كل هذا نعلمه ، وقد تناوله كل الكتاب المحدثين ولكن بالرغم من ذلك قد بدت فى الجو الأدبى ظواهر غريبة ، أولها ابهام فى القيم ، وغموض فى المقاييس ، وثانيها وهو المهم اختفاء النقد بالذات من عالم الأدب ٠ هناك انتاج أدبى ضخم بدون شك ، ولكن هذا « الترف من الفوضى » على حد تعبير جوفرى ويست ، أو بعبارة أخرى هذه البضائع المكدسة فى أسواق الأدب بلا ضابط ولا صيرفى يبين صحيحها من

زائفها ، يدل على أننا فى عصر متسم بخاصية من عدم المبالاة ، وعدم الالحاح فى ايجاد روابط ، وضوابط .

هذا الوعى بالضبط هو الذى يجب تشريحه ، وتفهمه ، والتغلغل فى طواياه ، لنفهم كيف حدث ، وهل يرجى له علاج فى المستقبل ؟ كلما فكرت فى الوعى الجديد يخيل لى أن هناك متكأ أفلت منا ، وسندا قد أضعناه باهمالنا ، هذا هو التراث الأدبى Tradition أعنى بهذا ذلك الحبل المتصل بيننا وبين ماضينا الأدبى ، ذلك الجيل الذى تنسج خيوطه أجيال وأجيال من التجارب الأدبية الثابتة . نحن الآن ننظر نظرة نصف ساخرة الى سفر قيم كديوان الحماسة ، وأكثرنا ينظرون الى الشعر العاطفى بنفس السخرية التى ينظر بها الآخرون الى العقل المهيمن على ديوان الحماسة فى التربية .

فنحن اذن فى مزيج من الثورة والسخرية ، وعدم الرضا ، وبين هذه الانفعالات المتضاربة لا نعرف أين نقف بالضبط ، ولا ندرى لنا طريقا خلال ضباب المستقبل . ونحن فى هذه الحيرة نتساءل هل أفادتنا مجهودات المؤلفين المتازين أمثال السحرتى ومندور والشايب وسيد قطب ؟ لا أعتقد أنها أعطتنا فرصا للمقارنة ، وأعطتنا فرصا للفهم والتحليل . ولكننا لم نزل بعد فى ظلماتنا ، لأن هذه المناهج المضطربة بين الكلاسيكية والرومانتيكية لا تؤدى الى خطوط ثابتة يمكن السير وراءها . وليت اضطرابها فقط فى التردد بين هذين المذهبين ، الموضوعية والذاتية ، بين المنطق والعاطفة . بين اللفظ والمعنى .

الى آخر ما هنالك من هذه الدروس الملتوية ، بلا انتهاء ولا غاية ،

ولقد يلتفت الباحث نحو الماضى ، فيجد عهدا من العهود ، عهدا قديما فى الواقع ، كان النقد فيه مبنيا على الفطرة ، ولكنه على كل حال

كان سليما ومعقولا ومحترما ، وكانت هذه الفطرة تشبه الايمان الدينى فى الاقتناع والقوة ، ولذلك جرى النقاد المحدثون على مذهب جديد ، هو أن يقارنوا ، عند ما يستعرضون تطور المجتمع ، بين تطور الوعى ، وتطور الاعتقاد الدينى • ففى العصر الذى تشير اليه، كان الانسان يستمد وعيه كما يستمد قواه الدينية من مصدر خارجى ، وكان هذا المصدر الخارجى من القوة والسلطان والاقناع بحيث يجعل الوعى الأدبى والوعى الدينى متماسكين فى ظل النظم والقوانين والتقاليد التى شرعها ذلك المصدر الخارجى • لم يكن هناك انقسام فى الوحدة النفسية ، لم يكن هناك عقل وعاطفة ، بل هناك عقل محض ، تختبىء فى ظله العاطفة وتستدفىء الروح • وكان هذا العقل يستمد جبروته من عقل شامل محيط يملى ولا يناقش • فى حماية هذا العقل كان النظام موطدا ، والاستقرار سائدا ، والدروب مشتركة والمسالك موحدة •

سار هذا النظام فى القرون الوسطى ، حينما كان أرباب الديانات يستعينون بقوة الفلسفة ـ أى بقوة المنطق والعقل ـ فى اجبار الناس على قبول المناهج الدينية أو الأدبية أما فى عهد النهضة وبعدها ، فقد استيقظت « الروح » الانسانية واستيقظت الذاتية الفردية ، واستيقظ الوعى الداخلى فى النفس البشرية • كل هذا لتحد الروح من سلطان العقل، ولتثبت أنها جديرة عن طريق البصيرة intuition بوعى مستقل كامل لا يعتمد على امداد خارجى هذا الانفصال فى شبكة الوعى ، هو بالضبط ما جرى فى النفس البشرية ، فأثر بدوره فى المجتمع والدين ، والأدب • أما فى المجتمع ، فهذا معناه الثورة على الدكتاتورية ، وقيام الديمقراطية ، وأما فى الدين ، فقد جعل الناس أقرب الى التشكك واللادينية ، لان الايمان المبنى على مجرد التأمل العميق يختلف عن الايمان المبنى على المنطق والواقع ، فالأول أقوى وأعمق ، ولكن الثانى أكثر سطحية ، وأعم اتساعا وشمولا •

أما فى الادب فمعنـــاه خــلع ســلطان الكلاســيكية ومبايعــة الرومانتيكية فى الأدب ...

ولكننا فى وقت التحام العناصر النفسية كنا أقوى وأشــد نظاما وترتيبا ، ولــكننا اليوم ـ بانقسام الوعى ـ شطرنا هــذا الوعى ، ولكننا لم نفلح فى اعادة الالتئام اليه مرة أخرى : من ذلك نتبين ، أن هذا التصدع جرى فى انتظام ، التئام جديد ، التئام بين دعاة العقل دعاة الروح دعاة الموضوعية دعــاة الذاتية ودعــاة الطاقة الخارجــة والطاقة الداخلة . Trascendant and immanent

يقول بوناميه دوبريه : « لم تر الدنيا عصرا من العصور ظهرت فيه الحياة تافهة ، والوجود سخيفا ، والقيم زائفة كما يتبين اليوم . ان قوى هائلة من الارادة الانسانية والتساؤل تنبت فى محيط كان يسوده الاعتقاد الأعمى المطلق . فنحن فى الواقع لانزال فى عصر تحول Transition يتميز بالشك والقلقلة ، وطابعه الاستخفاف بكل شىء ، وانكار كل شىء » . قال تولستوى : « ان أول مراتب الفن والنقد الاحساس الكامل بالحياة بقسميها العقى والاجتماعى . فمن أين يتيسر لنا الفن والنقد ، ونحن فى عصر تحول ، مفطور على تجاهل الحياة والقيم ، على أنه يبدو للذى يقرأ الروايات والسير أنها تلخص فى بضع كلمات : فلان الفلانى فى سن السابعة عرف القيمة الحقيقية لوالديه فأنكرهما . وفى البلوغ عرف قيمة التعليم فحقد عليه ، وفى الشباب عرف قيمة الأخلاق فثار عليها ، ثم تغلغل فى المجتمع فاتضح له فساده فتمرد على أوضاعه ، وفى سن الخامسة والعشرين انتهت القصة بهذا النظام الأسود المتشائم . هذا ملخص عام لجميع روايات هذا الجيل بدون استثناء ، والنتيجة الجــدية أن نرى ولا نزاع أن الأدب الأبتر فرع من الشجرة البتراء .

ولكننا فى الحق يجب أن نقف موقفا جديدا اذا أردنا أن نخلق عالما جديدا يجب أن نقف موقفا متفائلا بدل هذا الموقف المتشائم القاتم ، وأول خطوة لذلك أن نعترف أن التساؤل ، هو مدخل النقد ٠

وعلينا أن نذكر دائما ما قاله ماتيو ارنولد فى هذا الباب وهو بالحرف : « النقد هو ما يخلق موقفا ذهنيا ، تستفيد منه القوى الخالقة » ٠ ومعنى ذلك أن الفن يبلور القيم الانسانية ، أما النقد فيجلو هذه القيم المتبلورة للأنظار ٠

وقد يتساءل متسائل وما علاقة الذوق الفنى أو الأدبى بالنقد ؟ أليس لهذا أهمية ٠ فنجيبه أن الذوق هو بالطبع أساس النقد والفن، وقد يكون النقد التعبير التلقائى للذوق ، ولكنه فى الواقع أعلى من ذلك ، فان الذوق شىء باطنى « على كيفه » أما النقد فهو وعى الفن ، ويمكن أن يقال كذلك أنه وعى الذوق ، أعنى بذلك أنه الفن الواعى المنظم ، أو الذوق الواعى المنظم كما تشاءون ٠

criticism is the consciousness of art and test

وخطوة أخرى فى سبيل تفهم موقفنا الحاضر هو أن لا نجزع من تنوع واختلاط المقاييس ٠ ويجب أن لا نفزع من سيل الفوضى الذى يغمرنا ، فان الحقيقة الكبرى أن لكل سيل اتجاهه ولكل انتقال هدفه ، وان هذا التنويع فى الاتجاهات والمذاهب ، يحمل ـ على رغمه ـ خطوطا رئيسية ٠ فاذا فهم الناقد هذه الاتجاهات ، فعليه أن يكون محصنا ضد التأثرات العابرة أعنى أن يكون محيطا بميول نفسه ، وميول جيله ، وملما بالميول والاتجاهات الانسانية الماضية ومستعدا للمقارنة واستخلاص القيم الثابتة ، وأزيد ذلك شرحا أن على الناقد أن تكون وظيفته « كاتب حسابات الفن » عليه أن يدون الحسابات ، ويرصد الدخل والخرج ، ويعين الرصيد ، ويمحو من العملة القديمة ،

ليبدلها بعملة جديدة فهو من ثم يكون حافظ التراث ، حافظ التراث القومى والتراث الانسانى ، فان لم يكن هنـاك تراث فعليـه خلق تراث . هذه وظيفة هامة جدا للناقد وهو فى أثناء عمله هذا يجب أن يدرك اننا لم نعد فى عصر يؤمن بقيم مطلقة لا تناقش ، فان القيم المطلقة مستحيلة ، وانما الذى نبغيه هو الاختلاف فى ظل وحدة قابلة للنمو والتحسين .

ولمـا كانت الفلسفة والفن على اتفاق فى أنهما يحددان ويخلقـان القيم الانسانية ، فان الناقد يجب أن تـكون له ذهنيـة الفيلسوف والفنان معا . ولو أن مرى واليوت يعطيان الأهمية للعقل الفلسفى ، ولكن كما شرحت سابقا قد بينت علاقة النقـد بالفن ، وفى الواقع يهمنى أن أجد الناقد فنانا ذا نشاط ذهنى قوى . على اناقد اذن أن يكون له عقل فيلسوف واحسـاس فنان . وهنـا نقف على عتبـة الموضوع الكبير . عقل أم عاطفة موضوعية أو ذاتية ؟ معنى أو لفظ ، كلاســيكية أم رومانتيكية ؟ أنه مهمـا تعددت المذاهب وانقسمت لا تنقسم أكثر من مذهبين الكلاسيكية والرومانتيكية ، اما الكلاسيكية، فتصور العبودية للعقل والنظام والتقاليد . أما الرومانتيكية فتصور تحرر الروح ، والتمرد على الأوضاع ، والانطلاق الشعورى التام . ففى الأولى الاستقرار فى ظل النظام . والثانية التنفس فى ظل فوضى لذيذة . واذا استعرضنا العمل الفنى على الأجيال ، خيل لنـا أن هناك جهدا موصولا للخلاص من الكلاسيكية ولكن هذا غير حقيقى ، فان كل جيل يخيل له أن الجيل الذى سبق مثقل بالقيود ، فعليـه الخلاص من قيوده . وهو فى الواقع لا يمكنه أن يحطم تلك القيود لانها قيود أصبحت جزءا من الهيكل الأدبى والاجتماعى يود الذى يسكنه . وهو لا يدرى ـ أن يخلق متنفسا من الهواء الطلق ، فى أبهـاء قصر عابس الحجرات متجهم المعالم ، ولكنه قصر يقف رمزا للمجد ولا يزال أثره باقيا . وسيظل .

فالخلاصة أن الأجيال المتعاقبة عاملة على اعطاء الزمام للروح بدل العقل ، وللشعور بدل المنطق الصارم ٠٠ هـذا هو الاتجاه الرئيسى للجيل الحاضر ٠ فالكلاسيكية كما يريدها ناقد مثل اليوت لم تعد صالحة مطلقا ، والرومانتيكية كما يريدها ioya كذلك لا يمكن أن تنطلق على هواها !!

فما هى القيمة التى يتوخاها الناقد الحديث ـ ناقد المسـتقبل فى العمل الأدبى ٠ يجب أن يحاول الناقد وضع العمل الأدبى فى مكانه من القيم الانسانية الثابتة ، بعبارة أخرى يتعدى الخصوص للعموم ، وهو لن يصل الى هذه النتيجـة الا اذا اعتبر النقـد وعيا للحيـاة الانسانية ٠

قال تشـيكوف لأحد أصدقائه الذين يكتبون من برج عاجى : « تعال ، اختلط ، استغرق فى الزحام ، تنفس أدبا ، لكى تعرف كيف تنقد أدبا ! »

فقيمة العمل الأدبى أو الفنى هو القيمة التى نسـجلها فى درج الحياة الانسانية ، فاذا فهمنا ذلك ذهبنا الى صورة العمـل الأدبى ، العمل الأدبى غرفة ذات بابين ، باب يطل على الحياة ، وباب يوصل الى الحياة ٠

من الأول نسـتمد تجربتنا الشـعورية ، ومن الثانى نوصلها للناس ٠

أما الغرفة الداخليـة ففيها الفـكرة والعاطفـة واللفظ والمعنى والصورة والظلال ، والموسيقى والانسـجام والايقاع ٠ أى أنهـا « المطبخ » التى تطهى فيه التجربة لتخرج ناضجة ٠

وأهم مافى التجربة قيمتها الانسانية ، وأهم ما فى المطبخ الانسجام والتوازن والسبك ، وأهم ما فى الباب الخارجى سـهولة التوصـيل ويسر التفاهم ، وكيفية الاقناع والتأثير ، وبث الاحساس بالقيم التى أوحت بها الينا التجربة ، وكشف مواضع الجمال والأهمية فى الحياة والوجود . وقد يكون للشعر طبخ غير النثر ، وللنثر طبخ غير الغناء أو الموسيقى ، ولكنها فى اختلاف النسب والمقادير بينما تبقى الأصول على حالها من حيث التوازن والانسجام .

فالعمل الفنى يجب أن يحدد فى عين الناقد بمقدار الشعور الانسانى المنبت فيه ، والتوازن الجارى بين المتناقضات من عقل وعاطفة وفكرة ومعنى .

وأخيرا هل أفاد هذا العمل اتصالا ؟ فما قيمته وما أثره فى الأدب الحاضر ، والمجتمع الحاضر ، وما قيمته وأثره بالنسبة للتراث الأدبى العام ؟

هذا هو نقد المستقبل أو مستقبل النقد والسلام .

رسالة السياسة

ان اعتبار السلوك السياسى على أنه مسألة عقل وتدبير ، قد أصبح على ضوء علم النفس الحديث اعتبارا عتيقا ، وبعد قليل سيصير خرافة ، فقد ثبت أن السلوك السياسى أبعد وأعمق من أن يكون مجرد عقل أو دهاء • وأقصد بالسلوك السياسى ، ذلك السلوك الذى يساس به الناس بواسطة الحكام أو الساسة • ومصدر هذا التغير فى الاعتبار هو بروز مسألة « الغريزة » والعودة الى التحدث بشأنها فى علم النفس الاجتماعى ، وفى السلوك الاجتماعى على الاطلاق بشكل يدعو الى التأمل العميق • لا ندعى من ذلك أن علم النفس ، ذلك العلم الذى لا يزال ناشئا ، يمكن أن يطبق تطبيقا عاما ، فى كل مسألة ، أو أنه يمكن تطبيقه جزافا • على أننا اذا لم ننتظر منه فائدة مباشرة ، فانه مما لا جدال فيه أن الميدان الأخير هو له فى غير جدال ، ولقد ذكر رفرز فى كتابه الأخير عن السيكولوجية والسياسة أنه كان يضع برنامج المحاضرات والامتحانات فى الجامعة مدة ٨ سنوات مذاعة فى المدة الأخيرة ، وأثار العجب فى نفسه أنه فى هذه السنوات كلها لم يذكر كلمة الغريزة • وها هو قد عاد اليها ••• بحماس وقوة ، ليقيم دعائم السلام عليها ، وعلى ما تبين له من دراستها • على أنه ينكر المقارنة بين العقل والغريزة • ويقول ان هذا عبث • ويعتبر العقل غريزة متطورة ،و ينكر نسبة السلوك الى العقل • ويعرف الغريزة تعريفا جديدا ألا وهو « ان الغريزة اتجاه موروث نحو السلوك » ويقول أن من صفات الغريزة عموميتها • وكثيرا ما ننخدع

بشكل من أشكال الغريزة ، اتخذ زيا جديداعلى الأيام · وأخذ يبدو كأنه لون من ألوان العقل والذكاء ، فاذا أخذنا نحقق وجدنا أنه غريزة تشكلت من جديد بحسب ظروف جديدة ، وأهم هذه الظروف الكبت أو الاستعلاء · ثم يعود فيقول ان العقل فى نظره عبارة عن « لجام » يمسك بالغريزة ، ويكبح جماحها ، ويقودها ، وفى يده عنانها ··· ويؤكد كذلك أن هذا الموجه ، لا يوجه نفسه ، وانما يوجه « النواحي العاطفية للغريزة » ·· على أن النقطة التى نريد أن نبدأ بها هى هذه : هل يمكن الاعتماد على علم النفس الاجتماعى فقط ليقود خطانا الى ما نرجوه من السلامة ؟

لقد حاول أكثر العلماء مزج علم النفس الاجتماعى ، وعلم الاجتماع معا · على فكرة أنهما يلتقيان فى أن الأول استنتاجى ، والثانى استقرائى · أى أننا ندون ملاحظاتنا بواسطة الثانى ، ونستخلص النتائج بواسطة الأول ولكن رأى « جراهام ولاس » فى أن هناك ما يسمى « الميراث الاجتماعى » Social heritage وهو ميراث غير غريزى non instinctive خارج عن السلوك الغريزى· جعل هذا المزج مستحيلا · فهناك من السلوك المتوقف على الميراث الاجتماعى ما لا يقوم على قواعد « سيكولوجية » ، ولكنه يفيدنا فائدة كبرى فى الناحية السيكولوجية · ولما كان السلوك السياسي ، وهو جزء من السلوك الاجتماعى العام فان الملاحظات والمقارنات والاحصائيات سيكون له أثر بالغ فى توجيه السياسة وجهة نفسية : وعندنا أمثلة كثيرة على ذلك · أمثلة هامة جدا ، وأول هذه الأمثلة ، ما جاء فى كتاب وستر مارك المشهور عن عاطفة الانتقام · فهو قد قرر تقريرا سيكولوجيا مؤداه أن عاطفة الانتقام أصيلة فى النفس الانسانية وهذا مبدأ خطير جدا معناه أن استقرار السلام فى العالم غير مستطاع ، فجاء ريفرز وغيره يبحثون هذه الطبيعة · طبيعة الانتقام فى سلوك القبائل ، وفى الانسان الأول ، وفى مختلف الطبقات ، فانتهوا الى نتيجة مخالفة

لرأى وستر مارك مخالفة تامة ، معنى هذا أنه لكى ننتهى الى رأى صحيح يجب أن يسير كل علم فى طريقه ، على أن يسير العلمان على محاذاة وعلى اتصال ٠

ومثل آخر ، هو مثل الساعة ٠ ذلك هو حق المرأة السياسى ٠ اننا لغاية اليوم نتعلل فى حرمانها من هذه الحقوق بما نعرفه من سيكولوجيتها ٠ فنحن نقول أن مخها أقل من مخ الرجل ٠ وبذلك يكون ذكاؤها أقل ٠ وأن قوة احتمالها أقل ، وأن عاطفتها جامحة ، وأن تكوينها يعدها فقط للأمومة ٠٠ وأن ٠٠ وأن ٠٠

ولكن بقيت مسالة هامة ٠ أن من السلوك الانسانى والسياسى ما هو غير غريزى ، وما هو بلا شك جزء من الميراث الاجتماعى ٠ وهذا السلوك مبنى على أسباب غير جلية ولكن أثرها لا يمكن انكاره ، فمن ثم يتضح لنا أن سلوك المرأة السياسى يجب أن يوضع موضع التجربة على الاقل بمعنى آخر يجب أن نتبين سلوكها فى الانتخابات ، والدعاية ، ووسائلها فى البرلمان ، وفى الادارة وفى غير ذلك ٠ من يدرى ربما كان فى سلوكها السياسى ما يلقى بدوره ضوءا جديدا على طبيعة ذلك السلوك ، وربما كان فيه ما يصحح لنا أخطاءا سيكولوجية أوقعنا فيها جهلنا وعجزنا عن المغامرة والتجربة ٠

وثم مسالة أخرى غاية فى الأهمية ٠ وهى أن الادارة السياسية تجرى بواسطة اللجان ٠ واللجان حسب ما نعرف قسمان : استشارى وتنفيذى ٠ والقسم الأول ناجح غالبا ٠ والثانى فاشل فى معظم الحالات ٠ وقد أخذ علم النفس يبحث فى أسباب الفشل السياسى ٠ أى يبحث فى أسباب فشل الهيئة التنفيذية للمشروعات العامة والادارية ٠ فاتضح أن الفشل ناشىء من أن هذه المشروعات غالبا ما تقع فى أيدى قوم له خاصية سيكولوجية « الدفاع النفسى » وهى

ســيكولوجية قائمة على مركب النقص ، ومركب النقص يدعو الى « التهويش » وهذا التهويش هو دفاع عما تحتــه من العجز الحقيقى والقصور • فابتدعت فى أمريكا طريقة تدعى طريقة الشريط الأحمر وهى طريقة آلية يمشى فيها التفنيد من خطوة الى خطوة حتى تنتهى الخطوات بلا تردد ولا تلكؤ • ولكن هذه الطريقة فشلت فى السلم ، وان نجحت فى الحرب • فشلت فى الســلم لان حالة الســلم تقتضى المرونة والكياسة وادراك الطبيعة الآدمية التى تتطلب الأيدى المرنة الذكية لتسيير دفة أمورها •

من هذا يتضح لنا أننا لا نزال فى أول الطريق • على أن الطريق واضح مهما بدا للعين من أحجار وعقبات •

فاذا عدنا الى ما بدأنا به الكلام من أن كل ســلوك فى الوجود هو غريزى أصلا ، متجاهلين ـ بعض الوقت ـ مبـدأ ولاس الا وهو السلوك الغير الغريزى ، أى الميراث الاجتمـاعى • فاننـا ننظر فى التعريف « الغريزة هى اتجاه موروث نحو ســلوك خاص » فنجـده يؤكد شيئين الوراثة والسلوك ، ويمكن مقارنة هذا التعريف بتعريف آخر يقرب منه ولا يقل عنه فائدة الا وهو أن الغريزة «عادة اجتماعية»

هذا التعريف وسابقه جديدان جدا ، وقد محيا الى الأبد التعريف القديم الذى ألفناه وهو أن الغريزة « دافع حيوى » أو فعل « منعكس » الخ •••

وفائدة التعــاريف الحـديثة جليلة جدا فهى قد فرقت بين الفرد والمجتمع • وبعبارة أخرى محت ما كان معتقدا بأن هنــاك فرقا بين السلوك الفردى والسلوك الاجتماعى • ومحت كذلك ما كنا نسمع به عن « العقل الاجتماعى » qroup mind وانى أعتقد • كما يعتقـد

ريفرز وغيره أن هذا الكلام عن العقل الاجتماعى خرافة ، فان المجتمع ما هو الا الأفراد مجتمعين وما سلوكه الا سلوك الأفراد معا ·

ولقد تحدث جوستاف لوبون وغيره عن هذا العقل الاجتماعى مدللين على وجوده بحالات خاصة تحدث فى الحرب والفزع والنكبات · فان الناس يتصرفون تصرفا جديدا ، ويمشون على نسق غير مألوف · ولكن المحققين فى علم النفس الحديث يقولون أن ما يحدث ليس الا استيقاظ غريزة « القطيع » التى هدأت فى الطبيعة البشرية وأخمدت جذوتها عوامل كثيرة أهمها الكتب والاستعلاء ·

ولقد جر هذا البحث مشكلتين من أهم المشاكل ، يرتكز بحثهما على الغريزة من جديد · وينتهى التحقيق منهما الى رأى قاطع ، من حيث استطاعة البشر أن يرجعوا الى حالة اشتراكية طبيعية أو لا يرجعوا ·

ان للاشتراكية معنيين (الاول) امحاء طبيعة الملك الفردى واعتبار أن كل ما يملكه الانسان يمكن أن يكون ملكا لغيره ·

(الثانى) أن يعتبر الانسان نفسه مساويا للآخرين ، وانه خادم للمجموع وحجر فى البناء العام ·

والأول والثانى صفتان من صفات القطيع الآدمى ·

فاذا اطمأن الانسان الى أن للغريزة صفة العموم وأن هذه الصفة لا تموت اطمأن الى أن غريزة القطيع باقية فى الأعماق تعمل عملها وان تغيرت المظاهر والأزياء ولقد ذكر ريفرز بمناسبة غريزة الملك أنه تحدث مع أحد أفراد القبائل الابوزنجية عن أحواله العامة ففهم منه

أن ما يصيده ويكسبه هو ملك للجميع ، ولما عرف ذلك الانسان البدائي أن ريفرز يقتصد لنفسه ويودع فى البنك الخ ٠٠ أخذ يقهقه ساخرا ٠٠ ما من جدال فى أنه فوق صفة العموم فى الغريزة ، فان لها صفة أخرى أشد أهمية ألا وهو قدرتها على المرونة والتكييف ، ولقد عارض ريفرز ما قرره والاس عن الميراث الاجتماعى ٠ وصرح فى جرأة أن الوراثة تشمل من ناحية الغريزة ما هو مكتسب وما هو غير مكتسب ٠ وهذا مبدأ خطير جدا ، وحديث جدا ولقد بالغ فيه علماء الروس وقالوا اننا نرث من آبائنا حتى المهارة اليدوية ، ولكن المهم أن الغريزة تتهذب وتترقى ونحن نرثها برقيها وتهذيبها ٠٠ وعاد ريفرز يضرب مثلا على ما جرى لغريزة القطيع ٠ فأخذ أولا يدلل على وجودها بشكل قاطع كاساس فى طبيعة العقل البشرى السليم ٠ فان العقل اذا اختل ، كان أول مظاهر اختلاله الخروج على نظام القطيع ، والثورة على التقاليد المعروفة ٠٠٠

ثم عاد يقارن بين القطيع الآدمى من قديم ، والقطيع الآدمى الحديث ليرسى علم الحكم على قواعد لا تنهار ٠٠٠

فهو يقسم القطيع الى قيادى ولا قيادى ، والأخير شائع جدا فى الحيوانات ، فهناك من القطعان ما يسير فى جماعات لا رئيس لها ، ولكنها تعيش وتنمو وتتكاثر وتدافع عن نفسها وتهاجم ، على سياق جيد رائع ٠٠

فهذه القطعان تعمل عمها بواسطة الايحاء Suggestion والايحاء يتكون من ثلاثة عناصر : التعاطف ، والبصيرة ، والتقليد ٠

ولما كانت الطبيعة البشرية تقذف بنماذج جديدة بين آن وآخر variation

فقد يحدث أن يبدو فى القطيع المتشابه فرد متميز ٠٠ فيتبعه الباقون وينتقل التعاطف والتقليد والبصيرة الى ذلك الفرد ، ولكن التعاطف يصير اعجابا ، والتقليد يصير طاعة ، والبصيرة تصير ادراكا واعيا ٠ ولكنها مهما تنوعت مظاهرها فانها ايحاء ٠ ولما كان الايحاء مصدره العقل الباطن ، فقد استنتج الباحثون أن هذه الخاصية الأصيلة فى القطيع ، والتى تجعله يؤدى أعماله تأدية آلية سليمة فى صمت وهدوء يمكن استغلالها بين الشعوب ٠ وفى ذلك تنحية للنزاع الذى لا ينتهى بين الحاكم والمحكوم ٠ وقد أخذ المحققون كذلك يبحثون فى تأثير « الكلمات » فى الشعوب فانتهوا الى أن الشخصية هى التى توحى ، لا الكلمة ٠٠

اذا كان علم النفس قد وصل الى هذا الحد من البحث ، مرجعا البحث فى السلوك الى الغريزة ، والغريزة وحدها ، بل الغريزة الأصيلة ، فما المانع من تتبع الدوافع التى تؤثر فيها وتغير مظهرها ٠ ألا يجوز أن المجتمع يمرض كما يمرض الفرد سواء بسواء ، ما دمنا قد قررنا مبدئيا محو الفرق بينهما ٠ ان الفرد يمرض جسميا ، ويمرض نفسيا ٠ والمرض النفسى أهم ما فيه الكبت ، فهل الشعوب تكبت ؟ أجل تكبت ٠ والساسة فى هذا الأطباء سواءا بسواء أكثرهم يعالجون مظاهر الكبت ولا يلتمسون علله الدفينة ٠ وأكثرهم يصفون ملطفات بدل التقصى للأسباب الحقيقية ٠ وهناك مرضى يهربون من الحقيقة وأطباء يسيئون التشخيص لأنهم لا يريدون مواجهة الحقيقة ٠

ها أنتم سادتى ترون فائدة هذا البحث الجليل ، فأرجوكم أن تتبعوا الجديد فى علم النفس الاجتماعى ٠٠٠ والسلام ٠

رسالة القصة

تحدثت كثيرا عن رسالة القصة ، وأنا لا أعيد هنا ما قلته سابقا ، فالذى يبدو لى أن سنة واحدة غيرت مجرى تفكيرى ، وفى العصر من لم يتغير فى سنة واحدة يعد جامد • وتمر عليه الأحداث دون أن يدرى • ذلك لأن القصة كأى لون من ألوان الأدب يجب أن تساير العصر والا اندثرت • وقد ساءنى أننا متخلفون جدا عن الركب الحديث • ولقد كتبت فرجينيا وولف مقالا عن القصة الحديثة فبينت ان أقطاب القصة الذين نجلهم أمثال جالسورثى وكونراد وارنولد بنيت يعدون متأخرون • بالرغم من الروائع التى خطتها أقلامهم والتى نقشت نقشها نقشا فى سجلات التواريخ الأدبية ، اذا كان هذا هو الرأى فى هؤلاء العباقرة فأين نحن اذن من هؤلاء ؟ ولقد كتب أخيرا القصاص الذائع الصيت أوفولن فى مجلة المستمع الانجليزية التى هى لسان حال الاذاعة البريطانية فى هذا الصدد فانتقد القصصى الانجليزى الحالى ، والقصصى فى العالم عامة ، نقدا مريرا ساخرا •

على انى يجب أن أفرق أولا بين القصة القصيرة والقصة الطويلة وأقرر مبدئيا أنهما يختلفان تماما • وان كانت بينهم وشائج وأرحام ولأبدأ أولا بالقصة الطويلة •

قليل من الكتاب فى مصر هم الذين يحاولون القصة الطويلة ،

وأكثرهم يحاولون القصة القصيرة · لسبب بسيط · هو أن الأولى تحتاج الى « نفس » وجهد ، وتفصيل ، ومعاناة ، وفهم ودراسة ، وسبك ومبدأ ونهاية وعقد وحوار وحبكة الخ ·· حقيقة أن لكل شخص « حكاية » وحكاية طويلة يمكنه أن يجلس ليدونها ·· واذا اجتمعت بأى انسان تنهد وقال لك أن عندى قصة طويلة ، طويلة جدا ومؤثرة جدا وأريد أن أكتبها ، واذا كنت ناشرا ، أو رئيس تحرير لمجلة ، وجدت فى البريد هذه القصة الطويلة المؤثرة ، ولكنها حين تصل اليك وحين تقرؤها ، تتردد فى نشرها · وقد يكون أسلوبها جيدا ، ووقائعها حقيقية فما السبب فى ترددك · أليست القصة مهما اختلفت ألوانها « حكاية » أليست كل قصة مكونة من وقائع ، والجدير بالتسجيل منها هو المستمد من واقع الحياة ، ولكنك تتردد فى نشرها بالرغم من سلامة لغتها واشراق أسلوبها وديباجتها· وقد تردها « مع الشكر » لصاحبها فيعجب كل العجب لأنك رددتها اليه · وحينما كنت محكما فى وزارة المعارف فى مسابقة القصص ، كنت مكلفا بقراءة القصص المرسل للمباراةفقرأت أكداسا وأكداسا · فلم أستخلص مما يصلح الا القليل ، القليل جدا · تتساءلون الآن ولا شك ، هل الحكاية الجيدة السرد المستمدة من الحياة لا تكون قصة ؟ اذا كان هذا لا يكون قصة فماذا يكونها اذا ؟

أجيب على ذلك بأنك تستمع الى اثنين يقصان عليك قصة واحدة ، هى هى بعينها وقائع وتجارب وتفاصيل ·· ولكنك تغط فى النوم وأنت تستمع الى الأول ، بينما يستأثر الثانى بلبك حتى تلقى ما بيدك مهما يكن هاما لتصغى اليه اصغاء تاما · السبب فى ذلك أن الأول « يحكى كل شىء » فيضيع عليك كل شىء · والثانى يحسن شيئين الاختيار والترتيب selection & arrangement ومعنى الاختيار انه يعرف ماذا عليه أن يترك قبل أن يعرف ماذا عليه أن يقول · وهذه حكمة النضوج والفهم والتجربة لا فى القصة وحدها ،

بل فى أى عمل أدبى على الاطلاق . وقد كان تشيكوف يؤلف القصة فى ١٠٠ صفحة أولا ثم يحذف منها بالتدريج حتى تصل الى صحيفة أو صحيفتين ..

أما الترتيب ، فهو ما نعبر عنه « بكيفية العرض » .. فانت قد تقدم فصلا على آخر ، أو جملة على أخرى ، أو شخصية على أخرى ، أو كلمة على أخرى فيفسد الجو كله ... والعبرة هنا لا شك بالذوق الأدبى . ويتبين ذلك على أتمه لا فى القصة على الخصوص ، بل فى الشعر . فانك أخذت البيت الرافع وبدلت فى كلماته ، محافظا فى نفس الوقت على المعنى وجدت بيت الشعر قد فقد طعمه ، ولم يعد شعرا ولا نثرا ، وقد كان أحد أساتذتنا مغرما بقلب القصائد الكبيرة على هذا المنوال ، أى بمجرد نقل كلمة مكان أخرى وتقديم الواحدة على الثانية أو تأخيرها ، ووضعها أولا أو وضعها أخيرا .. ولماذا نذهب بعيدا خذوا الآية المشهورة « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .. أنقل كلمة أسفا من مكانها وأنت تشعر فى الحال بالقوة التى يحدثها « الترتيب » فى العمل الأدبى .

اذن فمجرد السرد لا يحدث حكاية ، ولا يحدث قصة ..

تقول لى ولكنها مستمدة من الحياة . فأقول أن الواقع المجرد plain foot لا يحدث تأثيرا قويا ، ولقد قال Haglett ان للعمل الأدبى وخاصة القصة جناحان القوادم ، والخوافى ، أما القوادم فهى هذا الواقع . أو على حد تعبيرى ، التجربة الواقعية ، أما الخوافى فهى « التجربة الشعرية » أعنى الظلال والألوان التى يضيفها المؤلف على الواقع ..

ولما كانت هذه التجربة الشعرية خاصية لا تتوافر الا للقليلين أدركنا سر الاحساس الذى يجعلنا نلقى بقصة ما جانبا ونحن نقول «مش قوى..» وانما نعنى نقص هذه الظلال ، فقدان هذه الاصباغ، أو باختصار ضياع الشاعرية المطلوبة فى القصة . هاتان التجربتان هما ما نسميه جوهر القصة . واذا حللناهما تحليلا دقيقا وجدناهما يتكونان من الاشخاص والحوار والعقدة ، وحل العقدة ، والمبدأ والنهاية...على أن بعض المؤلفين يقولون بل أن هؤلاء ليسوا فى الواقع جوهر القصة ، بل الشكل الذى تصب فيه القصة form ويقسمون الشكل الى قسمين : الشكل الميكانيكى ، أو الاطار الصناعى ، أو القالب ، والقسم الثانى ، القسم الغريزى instinctive form أما الشكل الميكانيكى فهو المتبع بين أكثر الكتاب الكبار مثل بينت وجالسورتى وولز . وقد كان بنيت أكثر الكتاب عناية بهذا الشكل الميكانيكى ، بحيث أن الشكل عنده قد شبه ببناء هندسى تام الابواب والنوافذ بحيث لا نجد منفذا واحدا تتسرب الريح من خلاله ...

ولكن مبتدع الشكل الغريزى ، وهو لورانس ، يقول دعوا القصة تطابق الشجرة النامية أى انها تنبت جذعا ثم تتفرع أفرعا ، ثم تورق ثم تثمر .

أى أن شكل القصة يجب أن يتكون من نموها الداخلى . فهو هذا الذى يحدد الشكل الخارجى . بينما المذهب الميكانيكى يبنى البيت أولا ، ثم يملؤه بالأثاث والسكان ... وبعبارة أخرى مذهب يبدأ من الخارج الى الداخل ومذهب يبدأ من الداخل الى الخارج على أن المذهب الأخير مذهب لورانس وفرجينا وولف مذهب خطير جدا.فهو مذهب حر ، مبنى على استجابات ودوافع داروينية محضة ، أساسها التفاعل بين الانسان والانسان ، والانسان والبيئة ، والانسان والحوادث ، فليس هناك عقدة ولا حبكة بل تفاعل مستمر . يتضح من ذلك أن القصة تماثلا فلما ملونا سريعا خاطفا ... ويتضح كذلك أن الفرق بين

المبدئين هو الفرق بين ما هو مادى وبين ما هو غير مادى · بين ما هو كلاسيكى يجرى على قاعدة ويتقيد بأوضاع ، وبين ما هو حر لا يتقيد بأوضاع غير ما تمليه الحياة ذاتها ...

وقد يخيل الينا أن أصحاب المذهب المادى ، كانوا يعانون فى « بناء » القصة نصبا وتعبا بينما أصحاب المذهب الحر يستسلمون لفوضى لا تكلفهم أى عناء ...

حقيقة أن أبناء المذهب المادى ، لكى يكون البناء متناسقا فخما كاملا ، كانوا يعانون مجهودا ضخما جبارا فى سبيل ذلك ، فان فلوبير كان يحبس نفسه فى غرفته أياما بحالها من أجل كلمة ، وأحيانا يخرج الى الشارع كالمجنون وهو يشد شعره ·

وقد ذكرت حكاية لطيفة عن ثاكراى · فقد اعتذر عن ليلة ساهرة لاصحابه لانه يريد أن يكتب فصلا فى روايته الخالدة « فانيتى فير » فأراد أصحابه أن يداعبوه فاقبلوا على منزله فى آخر السهرة وفاجأوه وهو يكتب فوجدوا أنه لم يكتب غير اثنى عشر سطرا من خطه المنمق الصغير ·

على أننا يجب أن نصرح أن المذهب الحر ، فى أيد غير أيدى وولف وجويس ولورنس يؤدى الى فوضى لا قرار لها · وقد كان لورنس شديد العناية بعمله ، عناية فائقة ، وكان يتوخى تجنب هذه الفوضى التى قد يؤدى اليها المذهب الغريزى فى القصة · فمما يروى عنه أنه كان يكتب القصة لآخرها وأحيانا كان لا يرضى عنها ، فيمزقها اربا ويبدؤها من جديد ...

هذا فيما يختص بالمذهبين القائمين اليوم ، ولنا عودة اليهما بعد حين .

فالآن أتحدث عن « الاشــخاص » فى القصة . ان الحـديث عن الاشخاص يعود بنا الى التجربة الشعرية فى القصة .

قال كيتس : « ان الشاعر أقل الناس شاعرية » ... يعنى بذلك أنه مرآة تلتقط كل شيء تصادفه، انها تشرب هذه الشخصية وتندمج فى تلك حتى تتلاشى شخصية الشاعر الأصيلة لانها امتصت كل هؤلاء . وتفسيرا لهذا نضرب مثلا له على أتمه فى توفيق الحكيم وبيرم التونسى ، فانهما يجلسان فى مجلس السمر صامتين لا يتكلمان . فاذا انفض المجلس يمكنك أن تستخرج من عقليهما فلما كاملا لما كان وما حدث فى أتم صورة وأجلاها. لقد امتصا كل شخصية واستوعبا كل كلمة... فاذا جلس توفيق الحكيم ليكتب عكس كل هذا فى قصصه عكسا صادقا عجيبا . واذا جلس بيرم ليؤلف زجلا وجـدت هـذه الصور مطابقة للأصل مطابقة مدهشة true to type .

هذه الصفة الشاعرية كانت من مميزات شكسبير الأولى. والظاهر أنه كان من الطراز الصامت المستوعب . لاننا لا نعرف من تفاصيل حياته الخاصة كثيرا ، ولكننا نعرف أنه عرض كل شخصية ممكنة فى السجل الآدمى ، عرضا صادقا جبار .

ان القصة كما ترون تطورت من السرد المحض الى السرد المختار كما هى عند جين أوستن وفيلدنج ، الى السرد المختار الجيد الترتيب كما هى فى فجر القصة العربية الحديثة ، ثم الى القصة التى لهـا « شكل » و « وجوهر » وقد تكون هذا الشكل والجوهر فى العصر الحديث ، العصر المادى من « الواقع » فالمادية فيه تساوى الواقعية والعكس بالعكس . وتناول علم النفس هذه المادية الواقعية بالتحليل

والشرح ، حتى صارت القصة أشبه بالجثة تحت مبضع التشريح . وحتى ضاع المذاق الفنى للقصة .

تسألوننى وما هو المذاق الفنى ؟

فأقول ان القصة كلما تطورت ماشت العصر، حتى أصبحت «شغل عقل» clever Brain work وكلما زاد عمل العقل فى الأدب ، ارتفع الى برج منعزل ، وغمسته أرستقراطية ذهنية خاصة ، وصارت عينه ترى فى المجتمع فروقا وطبقات .

فاذا انتقلنا الى الفن الروسى عند دستويفسكى وتشيكوف، وجدنا الوثبة التى كنا نتمناها . وجدنا العقل قد أسلم زمامه للروح ، فصارت القصة لا وصفا لتفاعل الغريزة مع ما حولها ، ولا لتفاعل العقل ، وانما وصفاً لومضات الروح ، وصفا للأعماق الهائلة التى تسبح فيها الروح البشرية . وما دامت الروح البشرية واحدة ، فمن هنا تنمحى الفواصل بين الطبقات . هناك روح واحدة تسر وتتألم ، تسخط وترضى ، تحب وتبغض ، تسف وترتفع ، ترسف فى القيود أو تطلب الحرية .. هناك أعماق واحدة متشابهة .

وصعوبة الفن الروسى ، هى فى أن الذى يحلل الروح البشرية ، روح مثلها تفهمها وتدرك آلامها وعذابها وحيرتها .. الفن الروسى، روح حساسة تخاطب روحا حساسة . عذاب يخاطب عذابا . آلاما تخاطب آلاما . آمالا تناجى آمالا ... الفن الروسى اعترافات ... اعترافات متوالية . ولذلك خلا من مبدأ ونهاية . ان عالم الروح غامض فسيح وكذلك القصة فى الفن الروسى . فقد تنزل الستار والناس يتحدثون ...... لم يفرغوا بعد من الحديث .

ان الفن الروسى على حد تعبير وارنر « يقبض على الأبدية فى كف، وفى لمحة » ...

رسالة الادب الاوروبى الحديث

التحدث عن التطور فى الأدب الاوروبى الحديث بصفة عامة يغنى عن تناول التطور فى أمة بذاتها من الأمم الاوروبية الكبيرة ، وماذلك الا لتقارب التيارات الفكرية فى مختلف تلك الأمم ، وتأثر كل منها بالأخرى ، واحتفالها بكل مذهب جديد ينبثق فى آفاق جاراتها حتى صار الحديث عن أدب احداها مشابها للحديث عن أدب الأخرى . ويمكن القول فى غير تعرض للخطأ أن تطور الأدب الاوروبى الحديث يتخذ أسلوب التطور العلمى .

وقد ساهمت الحربان العالميتان الأخيرتان فى التقريب بين الاتجاهات الفكرية الاوروبية ، وتبدو وجهة نظرنا هذه جلية فيما أسفر عنه نشوب الحرب الاسبانية الاهلية ، فان هذه الحرب لاتعد محلية ، بل ظاهرة عالمية أو أممية ، وقد اعتبرها الشعراء والكتاب مظهرا لتنازع القوى ومحكا لاختلاف المذاهب ، ومعرضا لتضارب العقائد . وعلى ذلك نزح عدد كبير منهم الى ساحتها ومن لم يشترك فيها بسيفه أو بندقيته اشترك بقلمه .

وهناك ظاهرة أخرى تؤيد ما ذهبنا اليه وهى أن كل مذهب جديد فى الشعر يؤدى الى التحول والتطور ، تصدر عنه نشرة تتضمن أصوله وقواعده وتسمى « مانيفستو » . فأدباء الانجليز يذكرون « المانيفستو » الذى كتبه « وردسورث » و « المانيفستو » الذى كتبه

« ف٠ت هولم » أما « مانيفستو » العهد الحديث فقد ظهر فى ايطاليا وامتد منها الى باقى الأمم المتحضرة ٠ وهو يتميز بلهجته العنيفة ، ودعوته الى بتر القديم ، وامتلائه بالشتائم والبصقات ٠ ومهما تكن قيمة هذا المانيفستو الذى ما زال اسم كاتبه المجهول محـل حدس وتخمين ، فانه كان صورة لما تردد فى الصدور من ضرورة التحول فى الاسلوب والمعنى والهدف الذى يتعلق الأدب به ويسعى اليه ٠

ونحن نقصد بالعهد الحديث تلك الحقبة التى تبتدىء قبيل نشوب الحرب الاوروبية الكبرى الأولى ٠ ويرى بعض أهل الرأى أن تحدد بالأشخاص لا بالحقب ، فيقال مثلا ان الشعر الانجليزى الحديث بدأ يوم نشر اليوت قصيدته الخالدة « الارض المهجورة » ، أو أن قصيدة الشاعر بردجز « انجيل الجمال » اختتمت عهده القديم ٠

على أن هناك ظاهرة هامة يمكن تلمسها فى كل مرحلة من مراحل تطور الأدب ، وهى أن أصحاب الاسماء الضـخمة التى تلمع ابان التجديد ، ليسوا فى الواقع المجددين ، ولا أول من غامر فى التجربة فقد تمر فترة من الزمن تعلق أثناءها الأنظـار بهم ، وتردد الالسنة آلاءهم، ثم تتجمع الشواهد على أن اسم الرائد الفعلى للتجديد مطموس فى بطون الكتب والاوراق ٠ ونحن نذكر على سبيل المثال لما نقول الشاعر الانجليزى « هوبكنز » ، والشاعر الفرنسى « ريمبو » ، وكان الاول من رجال الدين ، فحالت مهنته دون نشر ديوانه الذى ظـل وديعة لدى صديقه الشاعر بردجز ، فلم يطبع وينشر الا بعد موته٠ أما الثانى فقد جد له ما دعاه الى هجر وطنه والنزوح الى الحبشة ، واحترف هناك التجارة ، ثم عاد الى مصر ومرض بهـا ، ومات فى مرسيليا وهو فى طريق العودة الى بلده ٠ وكانت لمعته فى الحيـاة قصيرة ، ولكنه استطاع أن يخلف ذخرا من شعر رائع شرقى النفحة، تضمن بعضه وصفا لمشاهد أغلب الظن أنهـا مصرية ، ومما يلفت

النظر أن أكثر المجددين المجهولين الذين يتم التطور على أيديهم عباقرة من الشباب يختطفهم الموت فى سن مبكرة ، ولا يحترفون الادب ولكنهم يظلون من هواته ٠

ولو بحثت فى تاريخ الأدب الاوروبى المعاصر لاذهلتك قلة المجددين وأما الأدباء الذين وقفوا حياتهم على نشر دعوة التجديد فكثيرون ٠ وقد ذخرت المانيا وروسيا بأولئك المبشرين الذين نزحوا من بلادهم فى سبيل خدمة المذاهب الأدبية الجديدة ، ولاقى كثيرون منهم حتفهم فى ذلك السبيل ٠ ولكن ما هى الدعوة الجديدة ، وما هو الشعر الجديد ؟

خلاصة هذه الدعوة أن الشعر الحديث يجب أن يساير الزمن الحديث والحياة الحديثة ٠ يجب أن يصبح فى متناول الناس لا بعيدا عن أذهانهم ، قريبا منهم لا معتصما بأبراج عاجية ٠ وقد رأى المحدثون أن تكون هذه المسايرة بالتزام أمرين أولهما الطابع العلمى، والثانى السرعة ٠

أما الطابع العلمى فمنقسم الى قسمين أولهما طابع التأمل والتمحيص والشك والتجربة ، وثانيهما ألا يقف الشعر على هامش الحياة بل لا بد أن يتغلغل الى صميم الحقائق فيجلوها ، وأن يصل الى أغوار النفوس فيكشفها ٠

وأما طابع السرعة والتركيز والاختصار فقد نادت به أولى المدارس الأدبية الحديثة وهى مدرسة الصوريين imagists ٠ وقد ظهرت فى أعقاب العصر الفكتورى ، وترعرعت فى نهاية العصر الجورجى ٠

واذا كان الطابع العلمى قد أفاد الأدب من ناحية ، فقد أضر به

من ناحية أخرى ، فهو قد وصله بالحياة اذ جعله واقعيا ، ولكن تقطيع الأدب تقطيعا علميا ، وتشريحه تشريحا ماديا يفقده قيمته الفنيـة وجمال وحدته وتماسكه · ولا يظنن أحد أن الطابع العلمى يرمى الى جعل الأدب علميا ، ولكنه يدعو الى التذرع بوسائل العلم وهى الشك والتحليل الدقيق والاستقراء العميق ·

ومما لاشك فيه أن الراديو والسينما والصحافة طبعت الأدب الحديث بطابعها الى حد كبير حتى أن الكثير من الاعمال الأدبيـة صارت أشبه باللمحات الخاطفة ، أو بالعلم السريع الملون ·· ولقـد صار أدب لحظة ولحظـة لا أدب أجيال وأجيـال · وليس الاسـلوب التصويرى فى مذهب الصـوريين الا وليـد تلك الآلات الحديثة الاختراع ·

بنى الصـوريون مذهبهم على أن الأدب يجب أن يكون صـورا متلاحقة مضغوطة ، وقد بالغوا فى ضغط صـورهم ، وتفننوا حتى حملوا الكلمة الواحدة صورا مجتمعة لا صورة واحدة ، ومـا زالوا يمعنون فى مبالغتهم حتى صاروا يشحنون القصيدة الواحدة الضخمة فى بيتين من الشعر لا ثالث لهما ولكن المذهب الذى دعوا اليـه لم يربطه بالماضى أى رباط ، ولما شعروا بأن المبدأ الذى ينبت عن الماضى يضل سواء السبيل اذ لا يجد أساسا يرتكز عليه بحثوا عن دعامـة يؤسسون عليها مذهبهم فيصلونه بالحياة ، فاهتدوا الى مدرسة رأوها أقرب المدارس الى مذهبهم وهى مدرسـة الرمزية الفرنسية ، تلك المدرسة التى أسسها أديب لا علاقة له بفرنسا ، هو ادجار ألن بو ·

وصلوا سلكهم بسلك الرمزية ، ولكن شتان بين المذهبين ، واذا كان للصوريين فضل فهو لا يمت الى مذهبهم بصلة ، ولكنه ينحصر فى أنهم تسببوا عن غير قصد فى نقل مذهب الرمزية فى الأدب الى

انجلترا ، ذلك المذهب الذى لا يخامرنا شك فى أنه سيصبح أخطر المذاهب الأدبية شأنا فى المستقبل ، وسيضرب المجددون المفننون فى كل اتجاه ، ولكنهم لا بد راجعون اليه آخر المطاف مرغمين ٠

ولزيادة الموضوع شرحا أقول ان مذهب الصوريين كان يعتمد على الأسس الآتية :

(١) التصوير الشعرى ٠
(٢) التركيز ٠
(٣) الضغط ٠
(٤) استعمال اللفظ الموحى ٠

ولكن أصحاب هذا المذهب حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة ظلوا يدورون حولها حتى استنفدوا قواهم فهلكوا فيها ٠ على أن اليوت وسبندر ولويس وهم من شعراء العصر الحاضر ، ظلوا يتبعون طريقة التصوير والتركيز والضغط حتى بعد اندثار مدرسة الصوريين ٠ ولكنهم نحوا فى ذلك بطبيعة الحال نحوا جديدا ٠ وكان مما يدعو اليه المذهب الصورى اختيار اللفظ الموحى للتعبير عن المعنى ويرجع ذلك الى اعتقاد أصحاب ذلك المذهب أن المعنى المحدد للفظة ما يفقدها قوتها ، وأن جمال الموسيقى الشعرية لا يكون الا فى غموض المعنى الصوتى للألحان ، فكلما ألقت اللفظة ظلا من الغموض اكتسبت قوة وجمالا ، وذلك لانها تفتح لقارئها آفاقا مبهمة تتسع للتأمل !...

ولا يغرب عن البال أن شعر شكسبير كان غنيا بالصور حتى أن الصوريين عجزوا عن اللحاق به فى هذا المضمار ، ولكن غزارة مادته حالت بينه وبين الضغط والتركيز ٠ وقد جاء شعر شيلى كذلك على غرار ما دعا اليه المذهب الصورى ٠ وكانت صوره من الكثرة بحيث تبهر البصر كالمرايا المتكسرة فى طريق تنعكس عليه أشعة الشمس ٠

ولكن المدرسة الشعرية الجديدة فى انجلترا وجهت اللفظ توجيهـا سيكولوجيا جديدا • وتفسير ذلك أن الكلمة عنـد شكسبير وشـللى والصوريين كانت كلمة واضحة تؤدى معناهـا مباشرة ... وتعنى ما تقول أو بعبارة أخرى كانت تصدر عن العقل الواعى لتخلق صورة محددة ، أو عدة صور •

أما المدرسة الشعرية المشار اليها فقد اتجهت الى تحديد التجربة الشعرية ، وتحديد العلاقة بين العقل الواعى والعقل الباطن، وتجديد مهمة العقل الباطن فى الادب، واستغلال امكانيات العقل الباطن، وبناء الشعر الحديث على الطريقة المسماة التداعى الحر Free Associations وتقوم هذه الطريقة الاخيرة على الاسترسال وراء الـكلمات ، أى أن كل كلمة تجر الكلمة التى تليها حتى تنتظم القصيدة باكملها ، فاذا أعمل فيها القارىء فكره ، وجد نفسه يموج فى عالم لجب من المعانى والصور • وقد قال الشاعر الفرنسى « مالارميه » بمثل هذا حين زعم أن قيمة اللفظ تنحصر فى خلق جو غامض يستر وراءه وضوحا عليك أنت أن تستجليه بخيالك !...

والذى يعاب على هذا المذهب أنه ممعن فى الذاتية ، أى أن الشاعر يعبر عن قرارة ذاته ، ويتصيد أوهـامه الغامضـة محتفظا بمفاتيح أسرارها ويدع الناس يتخبطون وراء معانيه كيف شاءوا ، ويختار كل منهم التفسير الذى يلائمه •

واذا طوينا كشحا عن الانحرافات الأدبية الناشئة عن الويلات التى عانتها الانسانية بعد كل من الحربين الكبيرتين الاخيرتين ، فاننا نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن الطابع العلمى هو طابع الشـعر الجديد الذى عمد الى مجاراة الحياة والأحياء ، فأما مجاراته للحيـاة ففى طريق تأثره بها ، وتأثيره فيها ، وامتلائه بالحيوية الدافقـة •

وأما مجاراته للأحياء ففى طريق مشاركتهم فى مشاعرهم ، والتفاهم معهم ، ومخاطبتهم بلغتهم ، فان ازور عنهم ونبذهم ، آزوروا عنه ونبذوه .

نعم يحرص الشعر فى هذا العصر على أن يكون واضحا مفهوما حتى لذوى الثقافة الضحلة .

وقد كان الشاعر فيما مضى يصف الذهول مثلا فيقول انه اغراق فى الشرود أو يقول شيئا شبيها بذلك ولكن الشاعر المعاصر سبندر يقول عنه : «كنت ذاهلا كمريض مبنج على مائدة العمليات الجراحية»

ثم ان الشاعر الحديث لا يتورع عن استعمال الكلمات المتداولة التى كان الشعر يترفع فيما مضى عنها حريصا على تخير الألفاظ الشريفة الأنيقة . ويرجع سبب هذا التغير الى أن اللفظ لا يتخير الآن لذاته أو لحسن السبك وفخامة الديباجة ولكنه يتخير لأداء المعنى على أدق وجه وأوضحه مع مراعاة تناسقه مع المعنى والموسيقى الشعرية ، وهذا يتمشى مع نزول الشعر الى الواقعية فى بساطتها وصدقها .

رسالة الأخلاق

يتحتم علينا قبل الدخول في الموضوع أن نحدد ما نعنيه بكلمة فلسفة ، ثم ما نعنيه بكلمة أخلاق ، أما الفلسفة فهي ذلك الشيء الذي يضع الخطوط العريضة للتجارب الانسانية · ومنذ القدم عرف أن هناك طبقة فوق الفلسفة هي طبقة الدين ، وطبقة تحتها هي طبقة العلم · والدين كما هو معروف قائم على الحقائق التي لا تناقش ، أما الفلسفة فشرح الحقائق البعيدة للحقائق الظاهرة ، أما العلم فتطبيق عملي لهذه الشروح والتعليقات · ومن يستعرض مراحل الفكر على الأجيال يتضح له أن الدين يتكئ على الفلسفة ، والفلسفة تتكئ على العلم · وأن الفلسفة اذا عجزت تطلعت الى الدين وأن العلم اذا وصل الى أزمة تطلع الى الفلسفة طالبا منها المعونة ·

أما الأخلاق فكلمة غامضة ، تناولها الدين فجعل لها معنى ، وتناولها العلم فجعل لها معنى ، وتناولتها الفلسفة فجعلت لها معنى آخر ·

أما من ناحية الدين فالأخلاق الطيبة هي التي تتفق وتعاليم الدين بغير مراعاة للظروف والبيئات والأجيال والتغيرات الاقتصادية أو العمرانية · ولا شك أن الديانات تضع المناهج العامة التي بمقتضاها يتحقق صلاح العالم ولكن العقائد التي لا تناقش صار موقفها حرجا

فى العالم المتطور الذى أصبح كل من فيه صاحب رأى ، وكل صاحب رأى مغرما بالجدل والمناقشة . والواقع أن أكثرنا يؤمن بتعاليم الدين وقل من يمارسها اليوم ممارسة مخلصة .

وما أصدق قول برجسون الفيلسوف : ان التقاليد والعادات هى الأخلاق ، ولما كانت الديانات تنهى عن الخروج على المألوف فالتقاليد والعادات تتفق مع النصوص الدينية .

وفى القانون الهندى القديم (المانو) جاء ما يأتى : « ان التقاليد المتوارثة جيلا عن جيل خلال الأجيال انما هى عماد الاخلاق الفاضلة» ومهما يكن فى هذا الامر من الصواب من حيث أن التقاليد هى خلاصة التجارب الماضية أو هى فى عبارة أخرى« غربلة الماضى » فهى لاتصلح لان تكون قانونا عاما .

اذن فكلمة « أخلاق » أو رجل عنده أخلاق تعنى فى العرف السائد « ذلك الذى لا ينحرف عن الأصول » ونحن فى حياتنا العامة نعتبر كل من يخرج على العرف سىء الأخلاق . أما ما هى هذه الاصول بالضبط ، أو ما هو هذا العرف فهو هذا الذى ترك الافهام حائرة .

فسيقول لك رجل الدين « عليك بالقرآن والأحاديث » وسيقول لك رجل الفلسفة « عليك بارسطو أو أفلاطون » وسيقول لك عالم النفس « هو فى التوازن النفسى » وسيقول لك عالم الاجتماع « هو فيما يوائم بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع » ولقد فرق الفيلسوف دورانت بين التقاليد والاخلاق ، فقال أن التقاليد هى عادات نطبقها ولا نعظ بها ، والأخلاق هى عادات نعظ بها ولا نطبقها .

أما موقف الدين من هذه المسألة أعنى مسألة المعتقدات الثابتة فى

العالم المضطرب المتغير فلا يمكن أن يوصف أو يحدد بأدق مما حدده بوذا لتلاميذه منذ القدم • فقد ذهب اليه سكان كالاما وقالوا له « ان بعض البراهمة والنساك يجيئون الينا بمختلف المذاهب حتى عدنا لا نعرف ماذا نصدق » •

فأجاب : « الشك مفيد لكم والاعتقاد الاعمى ضار بكم ، لاتحكموا بالتقاليد ، ولا تطيعوا الكتب المقدسة بدون فهم ، ولا تتقيدوا بحجج المنطق ، ولا تؤمنوا ايمانا أعمى بحواسكم ، ولا بالافكار القديمة ، ولا حب المظاهر ، ولا تجروا وراء معلم أو ناسك • ولكن ليكن حكمكم كما ترون أنتم ، فاذا تبين لكم أن هذا الشيء ضار أو غير لائق ، أو أنه يحدث النكد والشقاء ، لنا ولغيرنا فتجنبوه ، واذا كان الشيء لائقا أو صالحا ، وانه يسعدنا ويسعد غيرنا فاتبعوه » •

ذلك هو القانون ، وهذه هي الأخلاق •

غير أن هناك ثلاثة أشياء لا بد من ذكرها ما دمنا نتحدث عن علاقة الدين بالأخلاق :

أولا ـ ان الديانات مختلفة التعاليم •

ثانيا ـ ان أرباب المذهب الواحد أو الدين الواحد قد يختلفون على النقطة الواحدة ، فيتشعبون فرقا ويتبعثرون شيعا •

ثالثا ـ انه في ظلال دين واحد لا يتغير ، تجيء نظم وتتلاشى نظم ، وتظهر مذاهب وتختفي ، وتتجدد عادات ، وتتوارى تقاليد ، ففي ظلال المسيحية كانت المبارزة مشروعة ، وكان الرقيق محللا •

ولما كنا في عصر العلم فقد جاء العلماء وقالوا لنا لماذا تتعبون

أنفسكم ان الطبيعة هى التى تقرر الصالح بغير انتظار لحكمكم ·

فلما جاء داروين وقال ببقاء الاصلح ظن أنه حل مشكلة الدنيا بمعنى أن ما تصنعه الطبيعة هو الطيب الوحيد · ولكنه اتضح (أولا) ان الأصلح فى عرف داروين ليس هو الاصلح بالمعنى المجرد لهذه الكلمة ، بل « الأصلح للبقاء » ثم اتضح أنه يعنى بالاصلح الاقوى· فهو قد سن شريعة القتال لتصفية الموقف وتحديد الاصلح · وهو فى ناحية أخرى بنى هذه الصلاحية على التعاون كمثل أعلى للحصول على ما هو أصلح ·

ولكن مذهب داروين انهار فلسفيا حين اتضح أن التنافس فى ناحية يقابله الكفاح فى أخرى فكأننا لم نصل الى شىء · وبعبارة أخرى ان التعاون المحمود ما هو الا كفاح ضد الكفاح ، أو هو ضرب من التكتل ضد العدوان ·

أما علماء الاجتماع فقد بحثوا عن هذا « الطيب » فيما أسموه حقوق الانسان أعنى ان هذا الطيب هو حق الانسان الاجتماعى · وان على القوانين والعادات أن تتفق مع هذا الحق الاجتماعى · وقد كان قرار استقلال أمريكا فى سنة ١٧٧٦ مبنيا على الحق « فى الحياة والحرية والسعادة » وبعد ثلاثة عشر عاما من ذلك التاريخ قررت الجمعية الفرنسية الوطنية حق الانسان فى « الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم » ·

فها نحن نرى أن أكثر هذه المقررات سرعان ما بات سرابا خادعا· ففيما يختص بالحرية ، ظلت تجارة العبيد بعد قرار استقلال أمريكا· وفيما يختص بمقاومة الظلم كانت الحرية ترفرف على ربوع فرنسا والظلم يجرى دهاقا فى مستعمراتها ·

وفيما يختص بالملكية ، كان النداء بالديمقراطية ثم بالاشتراكية نداء صريحا ضد الملكية ...

واذن فالميدان السياسى الاجتماعى لم يحل مشاكلنا ، ولم نصل عن طريقه الى خير عام مقرر يصلح لان يكون لجميع الازمان . اذن فلا مناص أن نعود أدراجنا للفلسفة فقد تعودت الفلسفة أن تكون دائما أصدق معين وسند . حينما تعجزنا السبل الأخرى .

فاذا لجأنا الى الفلسفة وجدنا أننا لا بد أن نبدأ بأسياد الفلسفة . لنرى هل الممكن أن تنفعنا آراؤهم القديمة اللذيذة فى هذا العصر المتجهم المر ؟ ...

لقدكان أفلاطون وأرسطو ومن قبلهما سقراط يعتقدون أنه لاحاجة بنا لان ندل أى انسان على الطيب لان ذلك مطبوع فى النفس الانسانية .

ولقد قال سانت أوجستين « ان الخلق الطيب كالوقت . أعرف ما هو بدون أن تسألنى عنه » معنى ذلك أن فى النفس نوعا من البصيرة نولد بها ولا نكتسبها ويمكننا أن نسمى هذه البصيرة « الضمير الفردى » ، ولكن هذا الرأى لا يمكن قبوله اليوم . لان هذه البصيرة لا يمكن أن توهب للناس جميعا على حد سواء . ثم أن هذا الضمير « الفردى » قد يتبدل بتبديل الأحوال والبيئات والظروف . فمن يدرى ربما كان نابليون يعمل تبعا لوحى ضميره « الفردى » .

فلما جاء عصر غير عصر نابليون انقسم الناس فريقان فريق اعتبره عبقريا ومصلحا ، والثانى اعتبره سفاحا ومجرما .

ولما كان علم النفس هو الابن البكر للفلسفة فقد مالت عليه تسأله رأيه ، فجاء برأيين ، الرأى الاول ان الاخلاق « غرائز اجتماعية » ، يعنى بذلك أن الغرائز التى نولد بها انما جعلت لنحافظ بها على أنفسنا أولا ، وبعد ذلك تجعلنا صالحين للاجتماع ، واذن فهناك غرائز تنحى ، وأخرى يفسح لها المجال للظهور ، حتى تصبح « عادات اجتماعية » هى خلاصة « الغربلة » ونهاية التجارب ، لاننا نلاحظ أنها ليست أكثر من طلاء تمسحه ظروف طارئة كالحرب والمرض والحب والغضب ... ويتضح من ذلك أن هذه العادات الاجتماعية ليست غير قشرة ، لا يمكن الاعتماد عليها مطلقا ٠

أما الرأى الثانى فهو رأى ينج ٠ وهو أن الاخلاق اما أخلاق استنباطية أو خارجية وأن الانسان البدائى استبطانى ، والطفل استبطانى ، أى انه انطوائى ، ينتزع من الصور التى فى داخل نفسه ليعكس على الخارج ، بعكس الخارجى الذى يعتمد على الحواس لينتزع صورا خارجية يعكسها الى الداخل ، ويقول أتباع هذا الرأى اننا كلما تحضرنا ، صارت أخلاقنا خارجية ٠ ولكن لم يقولوا لنا أى النوعين أصلح أو أجود ...

اذن فنحن نقف موقفا عجيبا ، عندما نريد أن نحدد ما هو طيب وما هو شر ، ونستطيع أن نحدد على الأقل أنه ليس هناك طيب فى ذاته ولا شر فى ذاته ، وانما يحكم على عمل ما بالنتيجة ٠ ولكنك تتساءل النتيجة لمن ؟ وكيف ؟ فأجيبك : النتيجة المباشرة وغير المباشرة ، قريبة وبعيدة ، للانسان ولغيره ...

وأى نتيجة ؟ أجيبك فى كلمة واحدة المنفعة ، فتسألنى وما صفة المنفعة ؟ أجيبك « الاسعاد » ٠ ولقد تناول اتباع بنتام الانجليزى هذا المبدأ ، مبدأ المنفعة حتى تسموا بالمنفعيين ، وأخذوا يشرحون معنى

« الاسعاد » فتعثروا ، فهم عرفوا هذا الاسعاد بانه « السرور وتجنب الألم » فخلطوا بين السرور الذى هو لذة حية وبين السعادة التى هى فكرة ، ومن ثم فاتتهم ألوان من السعادة لم تخطر لهم على بال ، كالسعادة التى تنطوى تحت لواء الفنون ، وفى ظل آيات الجمال ٠ وزيادة على ذلك فقد أخذوا يحسبون هذا الاسعاد بالأرقام الرياضية، فزاد ذلك فى أسباب فشلهم ٠

على انهم وان فشلوا فى تفسير معنى الاسعاد فقد تركوا للأجيال شرحه وتطبيقه ٠

ونحن اذا نظرنا للانسانية من ناحية عامة ، من حيث وسيلة « اسعاد البشر » وجدنا أن هذه الغاية لا تتساوى فى جميع المراحل التى اجتازتها البشرية ، فان البشرية مرت فى ثلاث مراحل ، المرحلة البدائية ، ومن الواضح أن اسعاد الهمجى أو البدائى يتلخص فى اشباع غرائزه ، والمرحلة الزراعية وهى مرحلة لبثت فيها البشرية خمسة عشر قرنا من الزمان ، وفيها وجد التشريع الأخلاقى ، ففى هذه المرحلة ، تكونت الأسرة ونضج الانسان بسرعة ٠ وتزوج زواجا مبكرا ، وقدست الأمومة ، والعفة والحياء ، وأدرك الانسان شيئا من الاستقرار بفضل التعاون بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو الأسر المتجاورة ٠

وكل ما يعين على تحقيق هذه الغايات فى الوسط الزراعى يؤدى الى « اسعاد » أهل هذا الوسط اسعادا فرديا وجماعيا ٠

أما الوسط الصناعى الذى صار طابع العصر فى الغرب ، والذى تتحول اليه مصر تحولا لا شك فيه فانه وسط المعمل والمصنع ، وسط الكفاح الفردى ، وسط ينضج فيه الفرد متأخرا ٠ ويتزوج

متأخرا ، وتقل قيمة الأسرة ، وينظر للعفة والحياء والأمومة بنظرة مختلفة . ويكثر فيه القلقلة ، والاضطراب والكبت ، ويقل الأمن والاستقرار ، فلا شك أن « الاسعاد » فيه مختلف جدا عن كل ما سبق ..

واذن فالخلق الطيب يقدر بنتيجته . معنى ذلك أنه لا يوجد خلق طيب فاقد النتيجة ، أو بعبارة أخرى له صفة سلبية . فليس يكفى أن تكون لك النية فقط . بل يجب أن تتحرك وتعمل . فصفة العمل الطيب الأساسية انه ايجابى نافع ومسعد .

ما الطريقة اذن لخلق شخص له هذه الميزة المثلثة ؟ ان الفلسفة توقفنا عند هذا الحد ثم تسلمنا لابنها الأكبر وهو علم النفس . الذى يتحدث عن أمرين دوافع داخلية ووسط... وان جميع المشاكل ـ لا مشكلة الاخلاق وحدها قائمة على التحيز لأمر من هذين .

واذا قسمت الفلاسفة المحدثين ، وعلماء النفس المشهورين قسمتهم مدرستين كبيرتين من حيث التحيز لهذا الرأى اذ ذاك .

أما أرسطو فقد قال « ان هناك دافعا داخليا بشكل كل شيء » ومن هذا الرأى برجسون ووليم جيمس (فى مذهب الذرائع) .

ويضاف لذلك أفلاطون وكانت وليبنتز وشوبنهاور ومن علماء التطور لامارك ، ومن الأدباء جيته وكاريسل ونيتشة . وتلخص آراؤهم فى أنها تخضع الأشياء للفكرة والمادة للعقل ، بينما المذهب الثانى ، المبدأ الذى يدين بأن الوسط هو كل شيء ، يحول الفكر الى « شيء » و mind « العقل » الى مادة ومن أقطاب هذا المذهب والمبشرين به : ديموقريطس ، وابيقور ، وهوبز ، وسبينوزا ،

وداروين أخيرا • ثم سبنسر ، ثم واتسن صاحب المذهب السلوكى •

ولا بد أن أذكر أنه لا تزال تذكر فى كتب علم النفس الحديثة ، الحديثة جدا ، مذهب تقسيم الأخلاق حسب المزاج : حزين ، غضبى ، ودموى ، وبلغمى •••

ولا نزال نذكر التقسيم الى فكرى ، وعاطفى وارادى ، ولكن هذا أصبح قديما جدا ••

ولكن المذهب الذى يأخذ به المحدثون اليوم ، يميل الى الرأى الأول ، ولكنه يعترف بوجود اتجاهات ورغبات ودوافع موروثة ، وفى ذات الوقت يعترف بأهمية الوسط ، يعترف بها اعترافا جديا • ولكنه يبدأ من الناحية الأولى فى شرح مسألة الأخلاق • وعلى ذلك يبدأ بمسألة الدوافع ويقسم كل دافع الى ثلاثة أقسام ينقسم كل منها الى قسمين : سالب ، وموجب • أما الثلاثة أقسام فهى متداخلة ولا يستطيع فصل الواحد منها عن الآخر • وهى الغريزة ، والعادة ، والشعور • ونحن نولد بخمسة غرائز أساسية يمكن ربها فى اثنين ما دمنا نجد لكل غريزة وجهين : الغرائز هى البحث عن الطعام ، والقتال ، والعمل ، والاجتماع ، والتناسل •

فالبحث عن الطعام سلبيته التقشف ، والقتال سلبيته الهرب ، والعمل سلبيته الخمول والنوم ، والتناسل سلبيته الامتناع عن الأنثى •

والعادة المصاحبة للجرى وراء الطعام ، اما الصيد والقنص (ايجابى) واما انتظار الطعام وغسل اليدين (سلبى) والشعور المصاحب هو الجوع ، أو ضده وهو العزوف عن الطعام •

رسالة الأدب الروسى

لماذا نتحدث عن الأدب الروسى ؟ هل له أهمية تقتضينا هذا العناء والتقصى ؟ ... أجل له أهمية بالغة .

فان الأدب الروسى - فى القرن التاسع عشر - ثورة على الاتجاهات الأدبية كما عرفها التاريخ الأدبى . فاننا جميعا نعرف أن الأدب اما جرى فى ظلال العاطفة أو فى ظلال العقل . أو فى مزيج منهما معا .

ولكن الانفصال بين العاطفة والعقل ظل عاملا مهما فى أسباب الجمهور الأدبى . وقل فى الشعراء أو القصاصين من أمكنة يلائم بينهما . فهما فريقان : اما فريق مغرق فى الخيال ، وأما فريق مغرق فى الواقعية . وقد كان المزج بين المذاهب المختلفة ديدن المفكرين والنقاد فى العصور الحديثة .

ولكن الروس أفلحوا فى ايجاد هذا الانسجام وزادوا على المستوى الوجدانى والفكرى مستويين آخريين مستوى الروح ، ومستوى الأعصاب ، ويمكن أن نقول أن تولستوى أضاف مستوى آخر هو مستوى الحياة .. أى أن هناك طابع للوجدان ، وطابع للروح وطابع للأعصاب ، وطابع للحياة ، وهذه كلها عليها أن تلتئم لتحدث أدبا جديدا ..

رسالة الأدب الروسى

لماذا نتحدث عن الأدب الروسى ؟ هل له أهمية تقتضينا هذا العناء والتقصى ؟ ٠٠٠ أجل له أهمية بالغة ٠

فان الأدب الروسى ـ فى القرن التاسع عشر ـ ثورة على الاتجاهات الأدبية كما عرفها التاريخ الأدبى ٠ فاننا جميعا نعرف أن الأدب اما جرى فى ظلال العاطفة أو فى ظلال العقل ٠ أو فى مزيج منهما معا ٠

ولكن الانفصال بين العاطفة والعقل ظل عاملا مهما فى أسباب الجمهور الأدبى ٠ وقل فى الشعراء أو القصاصين من أمكنه يلائم بينهما ٠ فهما فريقان : اما فريق مغرق فى الخيال ، وأما فريق مغرق فى الواقعية ٠ وقد كان المزج بين المذاهب المختلفة ديدن المفكرين والنقاد فى العصور الحديثة ٠

ولكن الروس أفلحوا فى ايجاد هذا الانسجام وزادوا على المستوى الوجدانى والفكرى مستويين آخرين مستوى الروح ، ومستوى الأعصاب ، ويمكن أن نقول أن تولستوى أضاف مستوى آخر هو مستوى الحياة ٠٠ أى أن هناك طابع للوجدان ، وطابع للروح وطابع للأعصاب ، وطابع للحياة ، وهذه كلها عليها أن تلتئم لتحدث أدبا جديدا ٠٠

على أننى أقول أن المستوى الروحى هو الطابع العام للأدب الروسى ، أوجد الابتكار الجديد لذلك الأدب ، وان اضافة الأعصاب كانت من شأن ديستوفيسكى والحياة من نصيب تولستوى ..

وقد يقال ان هذا العالم ، عالم الروح قد سبق أن تناوله الكتاب من قبل ، فأجيب أنه لم يسبق أن تغلغل أحد تغلغلا مباشرا جريئا صريحا كما صنع كتاب الروس . ولذلك لا يخاطب الأدب الروسى أى انسان ، ولا أى روح ، بل يخاطب الشروح البسيطة الصادقة الميالة للخير .. هى هذه التى تتجاوب معه والتى تفهمه والتى تحبه : والواقع أن الأدب الروسى يظل غريبا على الذى اعتاد قراءة الأدب الغربى الخاضع للعقل والترتيب والمنطق والشكل ..

والصواب أن على الانسان أن يقرأ كثيرا قبل أن يتمكن من فهم هذا الوعى الجديد ..

هذه هى الأهمية الأولى : الأدب الروسى أدب يبحث فى أسرار الروح وتفاعلها وآلامها وحسراتها ..

والأهمية الثانية هى أن الأدب الروسى يبحث مسألة السلوك الانسانى بحثا مباشرا صريحا جريئا . وكما تعود الكتاب أن يفصلوا بين العاطفة والعقل ، فكذلك الأخلاقيون تعودوا أن يفصلوا بين الطبيعة العقلية ، والطبيعة الخلقية ، بمعنى أن الانسان يمكن أن يكون سليم الأخلاق ، وهو فى ذات الوقت ناقص العقل . أو العكس . فالروس يقولون ان هناك وحدة بين قانون العقل وقانون الخلق ، وأن البحث على أنهما منفصلان هو أصل الخطأ ومصدر الضلال . وقد يقال أن هذا المذهب اغريقى قديم ، نادى به يوربيدس ، ودعا اليه فى مسرحياته ، وهذا صحيح ، ولكن تناوله على أيدى الاغريق كان تناولا

هينا لينا ، أما تناول الروس له فكان تناولا حارا عاصفا عنيفا . والسبب فى ذلك ينطبق على الاغريق كما ينطبق على أهل الغرب اليوم . فأن الاغريق مارسوا السياسة ، وتطبعوا بالطابع العملى ، شأنهم شأن أهل الغرب ، ولذلك فان قواهم الروحية استنفدت فى مزاولة الناحية السياسية أو العملية : أما الروس فان أرواحهم احتفظت بكامل قواها فى تناول المسألة التى تختص بالسلوك الانسانى . وتناولتها بايمان وحماس .

وعيب الناحية العملية انها تجعلنا نقبل عدم الكمال ، كحالة واقعة ، ونسلم بالفوضى الحاضرة على أنها حقيقة مؤثرة ، واننا « عمليا » يجب أن نرضى بهذا ..

ولكن الروسى لا يقبل هذا الرأى . فهو يعتقد أن النقص علاقة على الكمال . زيادة على أن النفس الروسية لا تدين « بالانفصال » ، فعندها أن السياسة والروحانيات ملتئمان لا يتجزءان . وعيب الغرب وكتابه محاولة التفرقة بين السياسة والروح ، أو السياسة والدين على فكرة أن السياسة شىء غير مشترك ، والدين شىء فردى خاص .

ولكن الروس يرون أن الدين لا يمكن أن يكون خاصا بمعنى كلمة الخصوص ، فانه يمس الفرد وغيره بلا جدال .

ولذلك ، لا يعترف الروسى فى قرارة نفسه بحرفية القانون ، أو بالناحية العملية للقانون . لأن القانون يحاسب على العمل . ويفصل العمل عن الاعتقاد ، بينما العقلية الروسية اللاانفصالية لا تفصل العمل على الاعتقاد .

واذن فمسألة السلوك الانسانى لا تعنى مطلقا قصة الفعل عمليا ،

بل قصة الرأى والاعتقاد كذلك بمعنى أن المسلك السياسى أو العملى يستند دائما الى خلفية روحية ·

واذن فالحكم على العمل لا يعطينا قضاءا محكما · فان الرأى والمعتقد جزء من الشخصية ، والشخصية شيء نهائى وقد يكون جبريا خارجا عن خيارنا · فهذا الاتحاد ، يجعل الحكم على ناحية واحدة حكما غير متين ·

ولقد يقال ان هذه هى النظرية الموضوعية العلمية غير المتحيزة ، فنجيب هذا صحيح ، ولكن حكم العلم قاس جامد بارد ، ولكن حكم العقلية الروسية الأدبية دافىء حنون ، انسانى ··

الأهمية الثالثة للأدب الروسى نتيجة لما سبق · معنى ذلك أنك ما دمت لا تستطيع أن تحكم حكما منطقيا على العدل المطلق ، فلا يجب عليك أن تدين أو تعاقب ·

الانسان منا لا يجب أن يدين أو يعاقب ، ومن هنا التسامح والغفران والتحمل · هذه الصفات الكبيرة الواضحة فى الأدب الروسى ·

لا نستطيع أن نحكم ، ولا نستطيع أن ندين ·· اذن من الذى يدين ويحكم ويثيب ويعاقب ؟ الذى يدرك الحقيقة ·· أين هو ؟ موجود فعلينا بالبحث ·· اننا تحت أيد جبرية مخفية تحت أستار كثيفة ·

هلم نكشف هذه الأستار أو بعضها · ان المسيحيين يقولون ان الله هو الحق ، والمسيح هو الخلق ·· وهذا قول جميل وقد كان جميع

الكتاب الروس مسيحيين يدينون بهذا القول ٠

ولكن بصورة تأملية فلسفية جعلتهم يعترفون اكبارهم للمسيح ـ أى للخلق ـ « صير المسيحية عندهم أضيق من أن تتسع لهم »

ولكن ما دام الخير والشر سران فى ضمير المطلق ، فقد تميز الأدب الروسى بهذا الظمأ للمطلق ، والهيام بالمجهول ، والانطلاق وراءه انطلاقا عنيفا ٠ وهذا الانطلاق الحر قد صير النفس الروسية كعالم متموج فيه احتمالات كثيرة ، وفيه مجال للغفران ، ومجال للتسامح ، وهذه المجالات الرحبة خلقت شيئا من الفوضى جعلت القلب الروسى حائرا يبحث عن مستقر فلا يستطيع ٠ فهو شارد ضائع يضرب فى فياف الأرض ٠ ولقد قال دوستويفسكى « ان الروسى الشريد محتاج لكل سعادات البشر لكى يعرف مستقرا أو هدوءا ٠٠ » ومعنى ذلك أن الذى يعلق سعادته بجميع سعادات البشر لن يجد السعادة ٠

هـذا التسامح العجيب هو سر سحر الأدب الروسى ، فان ذلك الادب يأخذ الدنيا على أنها « كل » لا على أنها أجزاء ينظر لكل منها نظرة خاصة ٠

وهو على ذلك لا يعترف بوجود « فواصل » وعندما تنمحى هـذه الفواصل يقرب الخير من الشر ، والصـعلوك من الملك والنجاح من الفشل ، فلا يعود الانسان حاقدا على الشر ، ولا حاسدا للملك ، ولا يائسا من الفشل ، ولا فرحا بالنجاح ٠

واذن فهناك « أعماق » يمكننا أن نصل اليها عندما نتسامح ونضحى ونتجاوز الحدود الفاصلة ٠٠ عندما نعترف بالانسجام التام بين البشر وبعضهم ، وبين البشر والكائنات ٠ على أن الانسان حين يبدأ

بالاطمئنان لهذا السر ، التناسر ، ويأخذ فى الهدوء والتأسى ، يأخذ الشك فى ذات الوقت بخناقه ، فيقول : « أيمكن أن يكون ذلك صحيحا » ؟ ولقد كان تولستوى يخرج وحده فى الظلام ، بعد أن محى الفواصل التى بينه وبين الناس ، ليقابل العناصر مفردا ·· وليسأل « هل ممكن أن يكون ذلك ؟ ولماذا يارب شئته أن يكون كذلك » ·

أما تشيكوف ، فيعترف أولا بالفوضى التامة فى أحوالنا الدنيوية ، وقلة التناسق عندنا ، ثم يتغلغل من هذا الى الايمان بالتناسق الكلى·

أما دوستوفيسكى فأبطاله فريقان فريق يقبل هذا التناسق الكلى، وفريق يرفضه ·· ويكون محور القصة المقابلة بين القبول والرفض وأثر كذلك فى النفسيتين المتناقضتين ، ويتضح ذلك على أتمه فى رواية اخوان كارامازوف ··· فمن هؤلاء اليوث المؤمن ، « خرج اليوث » وكانت زهور الخريف حول المنزل نائمة حتى الصباح ، وصمت الأرض يذوب فى صمت النجوم ولغز الأرض متصلا بلغز الكواكب ·· »

وكان دويستوفيسكى يرى أن هذا التناسق يمشى مشيا ملازما لحالات النفسية الانسانية وهو يرسمه رسما واضحا فى اقتران العواصف النفسية بالعواصف الكونية ، فهنا كما هناك الاشراق والظلمة ، والهدوء والعاصفة ··

على أن أهم مافى الأدب الروسى هو أنه بعد هذا البحث المضنى والاستقصاء المر ينتهى الأمر الى نوع من التسليم والمهادنة ، أو ينتهى الى التنبؤ بأننا فى سبيل خلق عالم يرى هذا الانسجام حقيقة ثابتة لا زائلة أو حائلة ··

رسالة الفن الحديث

السيريالية

الفن السريالى ، أو الفن فوق الواقعى ، أو الفن التجريدى ، وثبة من وثبات التطور الفكرى لا يمكن فهمها بغير الرجوع الى سلسلة طويلة من العلاقات التى نشأت وتطورت بين العواطف الانسانية والفكر . وفى استعراض هذه السلسلة ، وتلك العلاقات ، تعترضنا عدة أسئلة : السؤال الأول : كيف كان الانسان الأول يفكر ثم كيف كان يصور وينحت ؟ والسؤال الثانى : ما الذى دعا لتبديل هذه الطريقة ؟ وهل الأسلم أن نعود اليها ، وقد دعا كثيرون من الكتاب والفنانين والمحدثين للرجوع الى الغريزة فيما نكتب ونرسم والسؤال التالى أيهما أسلم ، اتباع الغريزة ، أم اتباع العقل ، أم اتباع طريق بينهما ؟

نبدأ بالسؤال الأول ، وهو كيف كان الانسان الأول يفكر ، وكيف كان يرسم ، ثم نصعد فى سلم التطور حتى نرى الخطى التى مشت بنا لأعلى هذا الدرج .

الفرق بين الانسان والحيوان ، هو أن الانسان قادر على التجريد ، Abstraction ، والحيوان لا يستطيع ، أعنى بذلك أنه لا يستطيع الخروج (الا قليلا جدا) عن حدود الحواس والواقع ..

وأعنى بالتجريد ، استعمال خصائص العقل بدون الاستعانة بالمرئيات ، أو بعبارة أخرى « التعقل » Intellect المبنى على مجرد ربط الأفكار منطقيا ٠

ومما تقرر فى هذا الباب أن الانسان لم يمكن ظهور خاصية التجريد فيه الا فى أثناء التطور البشرى لا فى أوله ٠٠

ففى الانسان الأول اذن كان التجريد موجودا ، ولكنه قليل وضيق الحدود ولم يكن تجريدا عقليا بمعنى الكلمة ، بل كان تجريدا عاطفيا ، Emotion وكان لصيقا لا ينفصل عن المرئيات ، وزيادة على ذلك فقد كان هذا التجريد العاطفى ، ضيق النطاق جدا ، بحيث لم يكن يتعدى التقديس والخوف ٠ وتوضيحا لذلك أنقل ما قاله ليفى برول بالحرف الواحد فى وصف العقلية الانسانية البدائية « كانت هذه العقلية غير متميزة التفاصيل ، بحيث لم تستطع أن تتبين المرئيات لنفسها ، قائمة بذاتها ، بدون أن تغمرها الاحساسات التى استثارتها هذه المرئيات والواقع أن هذه الاحساسات والانفعالات ، جزء ـ من تلك العقلية » من المرئيات والأشياء ٠٠

ويمكن ايجاز تطور الوعى فى أنه « محاولة » تطليق العنصر العاطفى ، من العنصر الواقعى ، وبعبارة أخرى محاولة « لتصفية » ما هو مختلط ، وايجاد « خانات » تتميز فيها المحتويات التى وراءها ٠ ومن ثم اخترعت الحروف الأبجدية « كرموز » لما وراءها ٠ ويمكن أن ندعو هذه الرموز بدلالات Concepts ، لما خلفها من المحتويات Contents

ثم تتطور المسالة الى الدور الثانى وهو أن هذه « الرموز » Symbols تؤخذ لذاتها ، وتستعمل فى التجريد العنصرى بقطع

النظر عما يخالف المحتويات التى دلت عليها ٠٠

ويتضح هذا على أتمه فى فلسفة هيجل وكانت التى استعملت هذا التجريد استعمالا قلبت به وجه التاريخ ٠ وسأبين كيف كان ذلك الآن ٠٠ فلننظر كيف مشى الفن فى هذا السبيل ٠ مشى عاطفيا ، ثم صار فى حاجة الى الرمز ، لكى يدل كل رمز على مجموعة خاصة من محتويات الجعبة المسماة العاطفة ، وبينما فى الأدب تستعمل الكلمة ففى التصوير والنحت تستعمل الخطوط والعلامات ، ثم بالتدريج تسقط أهمية هذه الرموز ، فى دلالتها على ما وراءها ، أى تنتهى المسألة بطلاقها من الحقيقة ٠٠ وبعد طلاقها من الحقيقة تفقد أهميتها وتأخذ فى الذبول ٠٠ ولكن تأخذ فى الذبول فقط كرمز ، ولكن تصير لها أهمية حديثة ، وهى أنها تصير نشاطا عقليا خاصا ٠ ويكبر هذا النشاط حتى يحاول أن ينفصل عن الفن ٠٠ بحيث يأتى فيلسوف مثل هيجل ليقول لنا ان العقل والفن منفصلان ، ولا يجب أن يتصلا ٠٠٠ وزاد على ذلك أن الفن من خصائص المراهقة ، وهذا قول لا يقصد به الجور على الفن وانما الدفاع عن المنطق ٠٠ وقد يكون هيجل على بعض الحق من حيث أن الفن لا يمكن أن يكون مسألة رموز ، ولا مدلولات ، وانما هو فى الواقع علاقة بين الحواس والمرئيات ٠

ويقول ليفى برول مرة أخرى ان الاحساس الفنى فى الانسان الأول كان صادقا ، من حيث أنه مزج بين المرئيات ، والمدركات ، ولكن ليس معنى هذا أن نعود الى الانسان الأول ٠ فان هذا المزج حقيقة نحن فى حاجة اليه ولكن على طريقة أخرى ، فانه يجب أن يجرى على طريقة البدء بالمدركات والباسها ثوب الحقيقة ، أى يقبل التقسيم العلمى الفلسفى من ناحية وجود وأهمية هذه المدركات أو المدلولات أو الفكر ، ثم الرجوع الى الحقيقة التى هى سلم لها والباسها ثوبها ٠

وبعبارة أخرى بدل المدلول المجرد عليه أن يخلق المدلول الحى ، أو الظاهرة الحية وهذا هو العمل الفنى ...

هذا هو الفن الحديث فى آخر تطوره ، والسريالية طراز خاص يبين كيفية تطبيق هذا المبدأ . وبناءا على هذا فهى تبدأ باخذ هذه المدركات ، التى هى نواة الفكرة ، لتطبيقها تطبيقا سيكولوجيا ، فأمام منطق هيجل وكان يحب أن نعترف بأن هناك قوى معادلة للوعى ، وموازنة له ، ولا تقل أهمية عن قوته ، كل شىء له مناقضه الذى علينا أن نجلوه معه لكى يزيد الوعى قوة باقترانه باللاوعى ، فأمام منطق هيجل لا بد أن نذكر أحلام لوتريامون وبيكاسو . وأمام منطق توماس اكويناس لا بد أن نذكر البناء التخيلى للكنيسة القورطية . فالمسألة اذن هى مسألة اطلاق قوى معوضة مكبوتة عليها أن تظهر فى العمل الفنى بشكل شاعرى يضاف الى المنطق والعقل . فالعمل الفنى الحديث يجب اذن أن يخاطب الحواس ، وفى ذات الوقت يستند على قاعدة عاطفية انفعالية أو بعبارة أخرى أن يجلو الفن الفكرة ، ومعادلها ، أو مناقضها اذا شئنا أن نقول ويمكن أن نوضح أكثر فنقول ان الفن السريالى ، أو التجريدى ، قائم على ايجاد التناقض بين الفكرة والفن ، وفى حالة ايجاد هذا التناقض ، يحدث المزج المطلوب بدون اخلال بوحدة الموضوع الأصيل وهو المدلول أو الرمز .. Concept

ولنوضح هذا فى الفن السريالى كما نعرفه اليوم ، فنبدأ بكلمة « الفراغ » Space فالفن السريالى يبدأ بهذه الكلمة أو « المدركة » ليجلوها فى ثوب يجعل لها حياة ونبضا ... وقد تناول المصور السيريالى « دالى » الذى سأحدثكم عنه قريبا هذه « الفكرة » فهو فى بضعة خطوط وبضعة ألوان ، يجعلنا نحس ، ثم نعى « بالفراغ » وعلى كل حال ما دمنا بدأنا بالمدركات وأردنا ترجمتها ، فقد دخلنا فى منطقة

العقل الباطنى ، وكلما تغلغلنا فى فهمه واستغلال ذلك الفهم أمكننا أن يكون فننا ديناميكيا ، بخلاف الفنون القديمة التى كانت شيئا ساكنا Static تحوم حوله ظلال حماسية • يتلخص الفن السريالى اذن فى انه فن يبدأ من « الداخل للخارج » ، أى يهتم بالفكرة قبل الموضوع وأقصد بالموضوع The object • وقد ظن أكثر الناس ان الفن السريالى فن تجريدى محض ، أى انه مجرد تأملات باطنية تسجل على اللوحة أو بالكتابة بقطع النظر عن المرئى أو الملموس • ولكن لابريتون وجاكسوين وقطاب هذه المدرسة ، قالوا مدافعين عن مذهبهم انه ليس هناك فن غير مبنى على المرئى الحقيقى ، ولكن السرياليين يبدأون بالحقيقة كما هى ، ثم ينسونها ، أو بالاصح يرجعون الى حقيقة الحقائق ، ألا وهى صورة الحقيقة مرتسمة فى العقل الباطن• فكما أن فى الطبيعة لا يمكن فصل الأشياء عن ملابساتها ، اذ أنه ليس هناك صحو بلا ضباب ، ولا ليل بلا نهار ، ولا ضوء بلا ظلال ، ولذلك فلا يمكن فى الحياة ذكر حقيقة أو تصويرها بغير ما يختلط بها من انفعالات ، وذكريات ، وانطباعات ماضية وحاضرة ، وأخرى ثابتة أو عابرة ، فالحقيقة اذن هى هذه ، حقيقة العقل الباطن ، فليس الواعى هو كل شىء ، بل يجب أن تكون صورة الحقيقة ممثلة للواقع وفوق الواقع أو وراء الواقع معا •

ولو خيرت فى التسمية لاخترت لها كلمتى « ما وراء الواقع » ، سواء بسواء ككلمتى وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا سواء بسواء ومصداقا لهذا أذكر أن مبدأ السريالية الحقيقية كان عند المصور بوش فى القرون الوسطى ، وقد كان فنا سيرياليا ميتافيزيقيا ، ولوحاته مشهورة ، وقد كانت وحيا لكثيرين من المعاصرين وبخاصة دالى الذى حدثتكم عنه ولكن فن دالى ـ على تأثره بفن بوش ـ انتقل من الحقل الدينى الى الحقل اللاواعى • بل أكثر من ذلك اعتمد على رموز العقل الباطن وأحلامه • وقد اطلعت على احدى لوحاته الشهيرة ، وكان

يسرنى أن أحضر صــورة لها لتســـتقر فى أذهانكم لوحة لدالى بل السيريالية الاصيلة ، ولكنى أكتفى بأن أخبركم بمحتويات الصورة. دالى يرسم حذاء ســيدة ، وبالقرب منهــا كوب من اللبن ، ويرسم خنزيرا بالقرب منه حشرة لها أقدام آدمية ، متدلى منها ساق بشرية مقطوعة .

وكل هذه الصور والرموز لا يمكن فهمها بغير الاطلاع على قاموس فرويد . فان الحذاء مثلا رمز جنسى Sexual يعرض لمفسرى الاحلام كثيرا ، وكذلك كوب اللبن .

من ذلك الوصف يتضح أن الناحيــة الجنســية غالبــة فى الفن السيريالى ويتضح كذلك من « الفانتــازية » Fantasy ان الناحيــة الشعرية غالبة كذلك . فليس من العجيب اذن أن نجد أكثر مصورى هذا المذهب يجمعون لفن التصوير فن الأدب . وبالأصح فن الشعر ولا أعرف ممثلا لهذا اللون من الأدب السيريالى ـ ربما على غير وعى منه ـ مثل جيمس جويس الأديب الايرلندى المشهور . وبخاصة فى قصته يولوسيس . فهو فى هذا يطلق عنان العقل الباطن اطلاقا حرا تاما معتقدا أن الحرية الخالقة يجب أن تكفلها حرية مطلقة فى التعبير . ويمكننا التعبير عن هذا بأن الحرية الفنية سبيلها تحطيم الحــواجز القائمة بين الصور الطبيعية والسيكولوجية أو على حد قول هربرت ريد عالم يختلط فيه الوعى بغير الوعى ، والعالم الداخــلى بالعــالم الخارجى ، وتختلط الحقيقة بالخيال ، والفكر بالعمل ، أى يكون هذا العالم صورة شاملة للحياة بأجمعها . وبينما نحن نعتقد أن النزعة السيريالية نزعة خيالية محضة ، يعترض أقطاب السيريالية على ذلك قائلين انها نزعة مادية محضة . وهذا عجيب . وحجتهم فى ذلك انها بجمعها للمتناقضات أو بعبارة أخرى الروحانية تمشى جنبا لجنب مع المادية التاريخية .

عند ما نتحدث عن هذه المذاهب لا يمكننا أن نترك الحديث عن أقطاب فى التصوير أدت وثباتهم الى ما بعدها ومنهم سيزان ·

وقصة سيزان فى التصوير رائقة وطريفة ومذهبه فى التصوير يعتبر القنطرة التى سار عليها القديم نحو الحديث ، بل اعتبرها شخصيا الفاصل بين ما هو فن وما هو مهارة فنية ...

سيزان مصور شهير من مصورى القرن التاسع عشر · وكان معاصرا للكاتب الشهير زولا · وكانا صديقين حميمين ، بل الصحيح أن سيزان لم يكن له صديق غير زولا ...

والواقع والغريب فى حياة سيزان أنه أقسم أن ينتهج نهجا خاصا فى الفن لا يغيره · وأقسم كذلك أن ينقطع لهذا النهج · فاعتزل الناس ، وترك صحبتهم وأبعد المرأة عن محيطه ، وأخذ يمارس فى التصوير طريقة خاصة كان يؤمن بأنها هى الطريقة الوحيدة للفن الصحيح ·

تلك هى البحث عن الحق ، لا عن الكمال · يقول سيزان لأمه فى احدى خطاباته : « البحث عن الحق ، والحكمة ، هو الفن ، أما البحث عن الكمال فهو المهارة الفنية » · ولقد كان يعتقد أن فن زولا على فرط واقعيته ، أدب مهارة أكثر من أى شىء آخر · وكذلك أحدث فى الأدب « جبلا ميتا » على حد تعبيره ، وان يكن در على زولا المال والشهرة ·

كانا صديقين وكانت الصداقة بينهما تقتضى الصراحة التامة ، فكتب زولا لسيزان يقول : « أنت لا شخصية لك ، فانك كسول ، عنيد » ، ونعته بغير ذلك من الالفاظ ، فاحتمل سيزان كل ذلك

وأجاب عليه بأن الشخصية الفنية غير الشخصية الخلقية· وأن الفنان يجب أن يكون صاحب مزاج Temperament

وقد انتهت الصداقة التى بينهما على طريقة شاذة ، فقد دخل سيزان ذات يوم ليزور زولا فلم يعجبه منظر الترف والابهة وخرج فلم يعد اليه ولم يشاءا أن يستعيدا صداقتهما · قال سيزان فى احدى خطاباته لأمه : « لم يعجبنى اميل : مكتب عظيم وأبهة لقد تغير · ولذلك خرجت على أن لا أعود اليه » ·

***

ما هو المذهب الذى دعا اليه سيزان غير توخى الصدق والحكمة ؟

هذا المذهب هو الاندماج فى الطبيعة لا عن طريق العقل وحده بل عن طريق الحواس ·

فمذهبه اذن مذهب حسى اندماجى كامل ، يثور على العقل ، أى يثور على الكلاسيكية ، ويدعو الى ضرب من التأمل الباطنى العميق المقرون بالحس ·

هذا هو سيزان فلننظر الآن نظرة الى بيكاسو زعيم السيرياليين، فى مقال لهربرت ريد عنوانه « انتصار بيكاسو » عرض جميل لحياة ذلك الرجل ، وعرض كذلك للمذهب السيريالى ، وكيف طبقه على فنه وحياته ·

بيكاســو

يتفق بيكاسو مع سيزان فى نقطتين الاولى أنه يعترف أنه يرسم هواه ، ويقول مرة أخرى : انى ارسم مدفوعا فقط بالحب والعاطفة ٠

والنقطة الثانية انه أنكر استعمال العقل فى الفن ، وزاد على ذلك بأن أنكر كل قيد ٠٠ ومارس الشعر والنحت والتصوير ٠٠ وكان يقول انه من الحتم وجود الفكرة « سجينة » فى عمل أى فنان اذا كان فنانا حقيقيا ، فلا معنى للتحدث عنها ٠ وفى سبيل هذه الحرية، أخذ يبحث عن « المجهول والقلب العارى ، والذى لم يخلق بعـد ، وعن الخفايا الدفينة فى أغوار النفس » هذا هـو بيكاسو ، فلنستمع الى المدافعين عنه لابريتون وجاكسوين فى المانيفستو الشهير ٠

يقول لابريتون أن السـيريالية ليست أسـلوبا جديدا ، ولا مذهبا جديدا وانما هى « فلسفة حياة » ، ان فى أعماق الانسانيـة والمجتمع وترا غنائيا ، وسنظل نطلبه الى الأبد ، وهذا الوتر هو الباطن : الباطن الذى أتيح لقليلين أن يصغوا اليه ويضربوا عليه ٠ فطن اليه أمثال جيته وبليك وورد سورت ولكن الذى كشفه حقا هم الفرويديون ، وقد شاء السيرياليون أن يجعلوا له أهمية فائقة ٠٠ فكما أن هناك ناحية « طبيعية » فى الخارج فهناك ناحية أخرى فى الداخل ٠٠ فى الأحلام فى الرؤى فى التنويم ٠٠

ويقول المـانيفستو :

« ان السيريالية » سيكيولوجية اوتوماتية تعبر بالرسم أو اللفظ مجرى التفكير الحقيقى ...

ولا علاقة لها بقيود الوعى ، ولا قوانين الجمال والخلق ...

انها لا تفرض وجود عالم الاحلام بل تقول أنه حقيقة كبرى ...

ويختتم بريتون المانيفستو بقوله : قال ريمبو شاعرنا السيريالى: نغير وجه الحياة · وقال غيره نغير وجه الدنيا وهما النقطتان اللتان ترتكز عليهما فلسفتنا ·

***

ولكن مارأينا الخاص·رأينا أن هذه النزعة الفلسفية هى رومانسية متطرفة · وأنها تقاوم الكلاسية من حيث أن هذه عقلية مثالية ·

على أن أحكم وأشهر السيرياليين لم يفتهم مطلقا أن يجعلوا فنهم مبنيا على شىء من العقل والحكمة ·· وبذلك تم لهم ما نشدوه وينشده الفن ، واعتقد أن المستقبل هو لهذا المزيج ولمن يستطيع أن يقوم به·

رسالة للآباء
(الهستيريا)

بحث جديد

ان الهستريا مرض يغلب في النساء ·

قد سار بنا علم النفس الحديث نحو حقائق جديدة كل الجدة · غريبة غاية الغرابة ·

وأول هذه الحقائق التغيير الكلي في معنى هذا المرض « الهسريا » فقد كنا لعهد حديث جدا نعلم أنه مرض عصبي منشؤه صراع عاطفي عند الذين يتصفون بضيق الوعي ، وعمق العقل الباطن · فان الاول اذا ضاق بما يحتوى ، نقل ما به بسرعة الى الباطن ، فيكدس مانقل اليه ، وأخيرا تقع الطامة ، اذ يحاول المكبوت أن يجد متنفسا ، اما عن طريق استجداء العطف والتمثيل ، واما عن طريق الجسد ، فتحدث الاضطرابات الجسدية المألوفة في الهستريا كالاهتزازات ، والتشنجات ، الخ ...

ولما كانت دراسة سيكولوجية المرأة قد كشفت لنا أن واعية المرأة ضيقة ، وأن عقلها الباطن عميق متسع ، فقد أصبحنا نفهم لماذا كثر هذا المرض في النساء ·

وما يحدث للذات (الأجو) يتوقف على مقدار الصراع الدائر · وعلى مقدار التخفيف المستطاع ·

وعلى كل حال فان الرجة التى تعترى الايجو تصدع بناءه • وقد يصل هذا التصدع الى درجة انقسام الشخصية وازدواجها •

هذا ملخص لمعرفتنا عن طبيعة الهستيريا فى السنوات الماضية • أما فى العصر الحديث فقد دعى ظهور أعراض الهستيريا فى الاطفال بشكل غير مالوف ، وانكشاف أعراض « هستيرية » لصيقة بأمراض أخرى كالصرع والكورية الروماتزمية كل ذلك أدى الى استعادة البحث على ضوء جديد •

وأخذت الدكتورة أودلام الطبيبة بمستشفى فكتوريا فى تناول هذا الموضوع بطريقة حديثة ، فاخذت تسأل المثقفين عن رأيهم ومبلغ فهمهم والمارسين من الاطباء عن مدى علمهم •

فكان الاتفاق عاما على أن الهستيريا ، هى صراخ وثورة وهياج يبديها شخص ما ، عندما يضيق ذرعا بالحياة ، أو عندما يعترض طريقه شىء أو شخص يريد الخلاص منه •

وزاد الاطباء على ذلك أن المألوف فريقان فريق لا مرض عنده ، وانما هو يخترع مرضا لغاية ما ، وفريق له نظرة منحرفة شاذة نحو أوضاع الحياة ، تؤدى الى اضطراب عاطفى يؤدى بدوره الى أعراض جثمانية •

على أن الطبيعة المذكورة كما أكدت وجود هذين الفريقين ، أكدت وجود نوعين آخرين :

نوع يتميز بفقدان الوعى مدة تطول أو تقصر •

ونوع مصحوب بفقدان الذاكرة على درجات تتراوح بين النسيان البسيط والنسيان الذى يتناول حتى الذات ٠

والمألوف أن الذاكرة تعود من بعد فقدانها ٠ ولكن عرفت حالات لا اضطراب للعقل فيها مطلقا،وانما ذهبت الذاكرة فجأة ولم تعد أبدا

وأما الاضطراب الجسدى ، الذى أشرنا اليه فمنه ما يكون تخفيفا لكبت ، ومنه ما يكون هربا من مواجهة مشكلة ما ٠ وقد عرف عن كثيرين كثرة التبول فى غير مرض ، فهـذه الظاهرة تعتبر كذلك وسيلة للهرب ٠

والعجيب أن هـذا المرض الذى ينشأ من القلق والخوف وتوتر الأعصاب يجب علاجه فى هذه الالوان من « التغطية » فيبدو المريض بالهستيريا أحيانا ، مطمئنا ، هادئا ، لدرجة غريبة من عدم المبالاة ولكن السؤال هو هذا : كلنا نواجه من المتاعب ما لا حصر له ٠ وكلنا نكبت ، نعانى صراعا بين العاطفة والواجب فمن منا الذى يقع فريسة للمرض ومن منا يسلم منه ٠

لقد اتضح للباحثين اليوم أن التعريف الوافى للهستريا هـو : « الهستريا اضطراب عاطفى يصيب مرضى ذوى شخصية خاصـة » هذه الشخصية تسير بيننا ونصادفها هنا وهناك فعلينا أن نتبينها جيدا ٠

لقد سميت هذه الشخصية « بالشخصية الهستيريونية » ، وهذه الشخصية توجد عند الذين لهم عالمهم الخاص فى أعماق سرائرهم ، « يمثلون » فيه كما يشاؤن ويؤلفون فيه رواياتهم الخاصة ٠

ولما كانت المرأة فى طبيعتها « خارجة » تلبس أزهى الثياب للزينة ـ والزينة نوع من الاستعراض الجميل ـ وتتحلى بأجمل الحلى ولو زائفة « لتمثل » دورها الرائع فى الحياة ، فنصيبها من التعرض لذلك المرض غير ضئيل ٠

ولا شك أن القارىء يسأل : ولكن متى تصاب هـذه الشخصية بالمرض ، وهل حتما تصاب ٠

لقد اختلف الرأى فى كيفية وجود هذه الشخصية ولكن السائد هو أن الانسان يولد بها ٠ وقد يكتسبها أحيانا من الوسط ، وهى فى درجاتها البسيطة كثيرا ما جاءت للوجود بالشخصيات الخـالدة الممتازة بالحيوية والمرح ، والذين جعلوا الوجود فى شتى نواحى الفن والأدب والاجتماع ٠

وقد يعيش أكثر هؤلاء بهذه الشخصية الهستريونية مستترة وبلا أعراض مرضية حتى يصطدموا بما يجرحها ٠

وأسوق ختام هذا الحديث للامهات والآباء أن أعراض الهسـتيريا قد تبدو فى أى سن فيما بين الطفولة والمراهقة ٠

ولقد بينت سابقا أن أصحاب الشخصية الهستريونية تبدو عليهم ملامحها مبكرة ٠ واذا لم تتبين فى أعمال الطفل فانها تتبين فى كيفية لعبه ٠ أما بعد نضج الادراك فان هذه الشخصية قد تصطدم بمـا يطبعها بطابع مرضى ، اما فى البيت أو فى المدرسة، ففى البيت يكون أول عامل وجود نزاع عائلى دائم أو أب سكير أو أم صخابة ، وفى المدرسة تصطدم بالمعلم القاسى الجاف أو بالرفاق العابثين ٠

فاذا كان الطفل خارجي النزعة فاول ما يصيبه هو أن يفقد الثقة، ويطوى نفسه على خوف وشك ، فيغطى ذلك بالصياح والضجيج لينال أغراضه أما اذا كان باطنى النزعة فانه يلجأ الى العزلة والانفراد وقليلا ما يصاب الاطفال والمراهقون بأعراض جسدية من الشلل وفقدان الأبصار والبكم .

وعلاج هاته الحالات يتوقف على فهم الأمور جيدا فيجب من أول الامر أن يفهم الوالدان أنه اذا تمكن الصبى من بلوغ أغراضه بطريقته هذه فذلك أمر فى منتهى الخطورة فعليهما أن لا يمكناه أبدا .

وعليهما فى ذات الوقت أن يفهما أن نفس الصبى مطويةعلى خوف . وعليهما أن يعيناه ويشجعاه على احتمال المواقف الجديدة . وفى ذات الوقت عليهما أن يهتما بدورة حياته اليومية فى المدرسة من معلمه ومن رفاقه وعليهما كذلك أن يعلما أن البيت الهادىء الرزين هو أول واق من الامراض النفسية .

رساله السعادة

لا شك أن السعادة فى حياتنا هى غاية الغايات ·

ولكن ما هى السعادة ؟

هى كلمة من تلك الكلمات الغامضة التى لا يمكن أن نعرفها تعريفا محيطا دقيقا كلمة السعادة ككلمة الشعر ككلمة الحب ...

يؤمن ايمانا لا جدال فيه ، فاذا أقبل يضع يده على شىء ملموس، وجد أنه يضع يده على شىء أثيرى ... ولكن السعادة ما دامت هدفا لكل انسان ، أليس من العجيب أن يكون ذلك الهدف غير واضح ولا مشترك ؟ ولقد ألف « برتراند رسل » الفيلسوف الشهير كتابا ضخما عن السعادة ، بدأه بالبحث فى أسباب الشقاء · ثم أخذ يدلل على أن السعادة هى فى تجنب أسباب الشقاء ... وهذا منطق معقول ولكنه غير عملى · فاننا يستحيل أن نتجنب أسباب الشقاء حتى ولو عرفناها · اذ كيف نتجنب منغصات العيش واثقال الحياة وتقلباتها · كيف نتجنب الظلم المتأصل فى النفوس والنفاق العريق فى الطبائع والكذب الذى هو من مقررات العصر ؟... ثم أخذ برتراند رسل يدلل على أن كل من طلب السعادة لنفسه لم يجدها وأنها انما تحدث كنتيجة لاسعاد الغير · أى أن السعادة فى رأيه ظاهرة انعكاسية · ولكنه لم يقل لنا ما هذه الظاهرة · ولم يقل لنا ما هى الطريقة لاسعاد الغير

أهى السعى فى منفعتهم ، أهى اشباع مسراتهم ، أهى منع الضر عنهم ؟ ولم يقل لنا هل مجرد القيام « بالواجب » نحو الآخرين يجعلنا سعداء لانهم هم أصبحوا سعداء ؟... ولم يقل لنا هل الجندى الذى مات فى الحرب فداء «الواجب» والرصاص يفتك به أو السيوف تخترط جسده ، هل ذلك الجندى مات مسرورا أو مات سعيدا ؟ وبالأحرى ما علاقة السرور بالسعادة وما الفرق بينهما .

ولقد ألف الكاتب الشهير كوبر يويز كتابا دعاه فن السعادة ، فاخذ فى مستهل الكتاب يدلل على أن السعادة « فكرة » ومن ثم هى شئ لا يعتمد على الشعور الحسى ، أى انها شىء خارج عن ملذات السمع والبصر والشم واللمس !

واذا كانت السعادة فكرة ، يرجع الحديث بنا القهقرى الى أرسطو، ومن طرائفه أنك لا تقول عن حيوان أنه نام سعيدا . ولا عن طفل ، لانه ليس للأولاد « فكرة » انسانية ، ولان الطفل لم تنضج عنده الفكرة بعد . وقد يقول القارىء ، ولكن الفكرة بمعناها الدقيق موجودة عند الحيوان وعند الطفل ، فأعود الى أرسطو مرة أخرى ، فأراه يعنى الفكرة الآتية من جوانب الروح أو بعبارة أخرى الروح الواعية . وأعود الى أرسطو فأسائله مرة أخرى ، وهل كل فكرة روحانية واعية تؤدى الى السعادة ، سلمنا معك أن السعادة مسألة روحانية ، وبذلك نخرجها من دائرة السرور والملذات الحسية وما أشبه ، ولكن هل كل « نشاط روحى » يؤدى الى السعادة ؟ يجيبنا أرسطو قائلا : كلا ، بل نشاط روحى يؤدى الى ممارسة الفضيلة والتفوق فى ذلك . وهو لا شك تعريف جامع عميق . ويكاد يقول لك أن السعادة تتمثل فى الفيلسوف الذى « انقطع » لهذه الممارسة، ممارسة الفضيلة .

هذا هو رأى أرسطو ، وهو رأى نبيل ، ولكن هل يمكن أن يطبق على جميع العصور ، هل ممكن لفليسوف يمارس الفضيلة ممارسة مخلصة أن يعيش فى القرن العشرين ويسعد فى القرن العشرين ٠ سيقول قوم ، انه سيكون سعيدا ما دام فيلسوفا عرف غايته وعاش لها وتخصص فيها ٠ ويقول كثيرون ان أكثر هؤلاء الفلاسـفة ومن شاكلهم ، انهم لم يعرفوا السعادة فى حياتهم ، بل عرضتهم مثاليتهم لاقسى ألوان العذاب والاضطهاد ٠ فلندع أرسطو فى مثاليته، ولننظر فيما يقول علماء النفس المحدثون ٠ فهم يقولون أن السعادة هى غاية الحياة ، بل غاية الغايات ٠ وأن كل الاهداف الصغيرة مهما اختلفت انما ترمى الى هدف كبير واحد ٠ هو السعادة بأوفى معانيها٠ فننتقل فى الحال الى الحياة والهدف من الحياة ٠ اى أن رسالة السعادة تكون مرادفة لرسالة الحياة فهل تكون الحياة قد أدت ما يطلب منهـا اذا اعتزلت الناس ، وعاشت فى برج عاجى تمارس فيه مثاليتها ؟ وكيف تتم هذه الممارسـة فى برج عاجى ؟ ولنفرض أن قديسـا بلغ قمة الفضيلة ، واعتزل فى رأس برج ، وأخذ ينظر الى الناس من أعلى ، يراهم فى أحقادهم واقتتالهم وتكالبهم على الفانى ٠٠ ماذا يكون أثر ذلك فى نفسه ، أن يرفع رأسه للسماء ، قائلا « رب أهدهم » واما أن يدير ظهرهاليهم متأسفا حزينا ، واما أن ينزل من برجـه اليهم ٠ والحالة الاخيرة ٠ هى التى نأمل أن يمارسها الفيلسوف بفكرة أنهـا فضيلة كبرى أن يختلط القديس بالعامة ليديهم ويرشدهم ٠

هناك حديث نبوى رائع مؤداه : « كلكم يغدو ، فبائع نفسـه ، اما معتقها ، واما موبقها » ولا شك أن سيكولوجية الحياة السعيدةهى فى كلمة « معتقها » ، أى أن الانسان « يتكيف » مع الوسط ، فلايبيع نفسه له ، ولا يرتكب موبقة بالثورة عليه أو الهدم من كيان المجتمع٠

وبعبارة أخرى يمشى بزورقه فى ذلك البحر الخضم ، آونة هادئا، وآونة مسرعا ، يماشى اللجج ويصانع العاصفة حتى يتعـلم الناس

الفضيلة ، ويأخذوا فى ممارستها ، وحتى يتعلم الناس أن الفرق بين الانسان والحيوان هو فى « الشعور الروحى » فقط ، عندئذ يكون قد أدى رسالة الحياة ، أى رسالة السعادة ·

ولكن كيف يتكيف الانسان وما هى مقتضيات هذا « الميزان » ؟

ان الطريقة الوحيدة هى الطريقة العملية المبنية على الملاحظة والتجربة · فهناك بضع قواعد أساسية للسير فى عباب أقيانوس القرن العشرين ، ويجب أن نلم بها ، وأن نفهمها جيدا · من تلك القواعد ، أن نفهم أننا نختلط بنوعين من الناس الرجال والنساء ، وأن هذا المجتمع قد برز بشطريه معا ، ولم يعد مجتمع رجال فقط ولم يعد فيه النساء مطويات فى الدور محجبات فى القصور ، فاذن عليه أن يفهم الفرق بين العقليتين ، ويدرك اختلاف النفسيتين· فاذا خاطب رجلا ، خاطب عقله ومنطقه وبيانه ، واذا خاطب امرأة خاطب عاطفتها · هذا مبدأ سهل بسيط ، ولكنه مجهول · وانى أدلل به على ما ذكرته سابقا من أن هناك قواعد أساسية مستقاة من واقع الحياة والجيل الذى نعيش فيه · وقس على ذلك كثيرا من القواعد الأخرى المقررة · التى لا حاجة بنا لتفصيلها فانها معلومة للذى يستقصى ، ويدقق ، ويريد أن يتكيف مع الحياة بدون أن يفقد شخصيته وبدون أن يبيع نفسه ·

لنكن عمليين اذن ، نؤمن أن السعادة « نشاط روحى » وأن هذا النشاط له علاقة كبرى بالخير والحق · وأن هذا النشاط يستلزم لممارسته عقلية مرنة تعطى وتأخذ، وفى ذات الوقت تحتفظ بطابعها·

هذه هى السعادة ، لمن أراد السعادة · والواضح أن ممارسة السعادة بعد ذلك يصبح عادة ، على شرط أن يتوفر الايمان ، ويتيسر التدريب الطويل ·

النبي محمد

« محاضرة ألقيت فى دار الرابطة الاسلامية وجمعية الشبان المسيحيين » ••

ليس قصدى من هذا الحديث الخطير أن أستأنف مكررا معادا ، ولا أن أذكر من حياة النبى ما هو معروف مالوف ، ولكن قصدى أن أبين للناس بعض نواح من عظمة الرسول قد تكون خافية عليهم • ان هذه النواحى تزيد اتضاحا لى كلما علت بى السن وكلما زدت ادراكا وفهما • ولذلك كان من دأبى أبدا أن أعيد تلاوة الاحاديث النبوية ، فأجدنى أرى شيئا جديدا رائعا كلما أعدت تلاوتها •

وكلما زدت تلاوة لها ، تبين لى أن الخير المحض يغلف العالم بغلاف تقصر أعيننا عن ادراكه ، حتى نكثر من قراءة هذه الاحاديث والاستغراق فى فهمها ••

قرأت حكاية لطيفة عن رجل كان يتوسم الخير دائما ، أكل الذئب غنمه ، فقال لعله خير • ثم أكل كلبه ، فقال لعله خير • وأكل دجاجاته فقال لعله خير • وأخذ الجيران يطلقون كلابهم تنبحه ودجاجاتهم تصسيح فى رحاب بيته فأغلق بابه ونوى الصمت • واذا بعدو يغير على الجيران فقد استدل على وجودهم بضوضائهم ومر ببابه وقد خيل له انه لا أحد فى ذلك البيت الصامت المهجور •

ان هذه القوة الخيرة اختارت من بين البشر أحبهم للخير • وحين

اختارهم الله قدر عليهم الصبر والاحتمال ، وكانت عينه جل وعلا ترعاهم وتسهر عليهم · قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ان الله من أحبه ابتلاه ، ومن صبر اجتباه ، ومن رضي عنه اصطفاه » · وان الذى يستعرض سيرة الرسول بالذات يدرك بوضوح كيف صبر ورضى وكيف ان الله جل جلاله أنقذه فى بدر وأنقذه فى موقعة الخندق بعد ان خانه اليهود ، وباعوا أقوات المسلمين وحالفوا المشركين ، فأرسل الله على خيام هؤلاء ريحا عاتية قوضت خيامهم · ولا بد أن المتتبعين للسيرة النبوية يعلمون أن أول الانصار فى المدينة هم الاوس والخزرج وان أصل القبيلتين من اليمن وأنهما نزحا الى هناك على أثر حلم سخيف رأته فى نومها زوجة أحد زعماء القبائل · فكأنما نزح القوم الى هناك وهم من هم من قوة وشجاعة وشهرة ، ليكونوا فى انتظار النبى عند بدء الدعوة · هذه ليست مصادفات ، وانما هى عنايات ربانية يجب أن ننظر اليها بعين الفهم والتفكير ·

على أن هاته العنايات الربانية والاسرار الروحانية لم تكن تصرف النبى عن التفكير فى تعمير الارض وتجميلها والعناية بها ، فانه هو الذى قال « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » · هذا هو بالضبط المبدأ الذى دعا اليه نيتشه فيما بعد · مبدأ السوبرمان ، وهو قائم على أن الانسان لا يجب أن يدمن التفكير دون نهاية فيما وراء الموت ، وان هاته الارض يجب أن تأخذ حظها من تفكير أهلها · وقد كان دعاء النبى هكذا : « اللهم انى أعوذ بك من ذنب يمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » أى الأمل الذى يظل الانسان مستغرقا فيه حتى ينغمس فى حياة حالمة خيالية لا جد فيها ·

وقد ذكر ان المسيح مر على جبل فرأى شيخا يعبد الله فى الحر والبرد ، فقال الرجل : « يا روح الله اخبرنى الانبياء من قبلك انى

لا أعيش أكثر من سبعمائة عام فلم يختر عقلى أن اشتغل بالعمارة عن طاعة ربى » فقال عيسى : « يأتى فى آخر الزمان أمة لا تجاوز أعمارهم مائة عام ٠٠ يبنون القصور » ٠٠ وهو قول بليغ جدا ٠٠ وشرحه أن الشيخ عبد الله حتى نسى أن يبنى شيئا ، وسيأتى قوم ينفقون أعمارهم ــ على قصرها ــ فى بناء القصور ٠٠

لا هذا مستحب ولا ذاك ٠

على أن الصلة الروحية التى بين الله وأصفيائه تقوم عليها أدلة كثيرة ٠ أضرب المثل بالدعاء ٠ وهل كانت المعجزات غير دعاء ؟

جاء فى الحديث الشريف : « دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب: دعوة المظلوم ، ودعوة المرء لاخيه بظهر الغيب » ٠

ومن العجيب فى عصرنا الحاضر ، ما يجرى فى قرية تدعى لورد تقوم المعجزة فيها على أسرار هذا الدعاء النافذ ٠ وهذا السر هو ما كان يهمس به النبى الى أصفيائه وينصحهم أن لا يلقنوه السفهاء لئلا يتوصلوا به الى الضرر ٠

نقل الدكتور كاسل الجراح المشهور عيادته الى قرية لورد ،وتأكد له شفاء المرضى هناك بين يوم وليلة ، فلما سئل عن ذلك قال : انى علمت أن الدعاء يشترط فيه أن لا يكون للداعى بالذات ، ويشترط أن يكون بايمان تام واندماج كامل ٠ ولما سئل عن رأيه فى كيفية الشفاء قال : ليس بغريب ان الجرح الذى قد يستغرق شفاؤه مائة عام ، يختصر الله زمن شفائه فى ساعات ٠

قرأت أن موسى وجد رجلا يدعو مرارا فلم يجب الى سؤاله ٠ فقال

يا رب لو أجبته فأجاب الله جل جلاله : « انه بخيل يدعو لنفسه » فأخبره موسى بذلك ، فدعا لنفسه ولغيره فأجاب الله دعاءه ٠

ورأى موسى رجلا يبكى ويتضرع فقال : « يا رب لو كانت حاجته بيدى لقضيتها » فأوحى الله الى موسى : « أنا أرحم منه به ، ولكنه يدعونى وقلبه عند غنمه ٠ وأنا لا أستجيب لمن يدعونى وقلبه عند غيرى » ٠

والآن ، وقفة قليلة عند بعض « الدساتير » التى جاءت فى الاحاديث الشريفة :

قال أبو ذر يا رسول الله أوصنى ، قال : « أوصيك بتقوى الله فهذا رأس الامر كله ٠ قلت زدنى قال : قل الحق وان كان مرا ، قلت زدنى قال : لا تخف فى الله لومة لائم ٠ قلت زدنى ، قال : عليك بطول الصمت فانه مطردة للشيطان ، وعون لك على أمر دينك ٠ قلت زدنى قال : عليك بالجهاد فانه رهبانية أمتى ٠٠ »

وانى لأقف من كلمة « الرهبانية فى الجهاد » وقفة المذهول ، فقد سبق القول : « لا رهبانية فى الاسلام » ولكن الجهاد شىء آخر يحتاج لزهد الرهبان وحرمانهم وتضحياتهم ٠ يحتاج لكل ما يجعل المجاهد يعتزل ويتنسك ويتجه نحو الله ٠ لا يمكن أن يوصف ما هو مطلوب فى الجهاد بأروع مما جاء فى الحديث الشريف ٠

وانظروا الى الصراحة العجيبة فى الحديث الشريف « حبب الى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عينى فى الصلاة ٠ هذا قول نبى مرسل ٠ ولكنه صريح صراحة عجيبة ، ولنقارن بين أقواله وأقوال

أصحابه . قال أبو بكر : « حبب الى الجلوس اليك ، والصلاة عليك ، وانفاق مالى عليك .. »

وقال عمر : « حبب الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واقامة الحدود » .. وقال عثمان : « حبب الى ثلاث : إطعام الطعام وافساء السلام والصلاة بالليل والناس نيام » .. وقال على : « حبب الى ثلاث : « الضرب بالسيف ، والصوم فى الصيف واقراء الضيف » .

كان النبى مع أصحابه فى سفر ، فأخذوا يذبحون شاة ، فقال رجل على ذبحها ، وقال آخر على سلخها ، وقال آخر على طبخها .. فقال النبى وعلى أن أجمع لكم الحطب ..

وبمناسبة هذا التواضع العظيم قرأت أن سليمان كان على بساط الريح فأخذه الزهو والعجب ، فأراد السرير أن ينقلب ، فقال له سليمان أستقم ، فأجاب السرير : استقم أنت أولا !

هذا قليل من كثير من السيرة المحمدية العظيمة ، أرجو أن يحفزكم الى المزيد من قراءتها والامعان فى أسرارها ، والسلام ..

خاتمـــــة

قد استعرضت فى هـذا الكتاب ألوانا من الأدب وألوانا من الحياة ، وألوانا من مشاكل الناس صغارهم وشبابهم وكبارهم • وحاولت ما وسعنى الجهد أن أجد لكل مشكلة حلا ، ولكل داء علاجا • وقد رجعت الى أطباء النفوس من قديم ، وما زلت أمشى عبر التاريخ منحدرا الى الحاضر أسائل هذا ، وأتحدث الى ذاك ، لعلى أقع على الحقيقة •

وأين هى الحقيقة !؟

هناك حقيقتان : الحقيقة الصغرى التى نصل اليها بعقولنا فى المدى الضيق الذى نصل اليه عن طريق الحواس • والحقيقة الكبرى التى نصل اليها ــ أو لا نصل ــ بقدر ما نمنح من وعى باطنى ، وأحساس لا يتصل بالعقل ولا بالحواس •

ونحن بنو البشر قد عشنا الى اليوم نستخدم حواسنا ووعينا وعقولنا ، ولا نستخدم غير هذه • وقد خيل لنا أننا وصلنا • ولكن فى الوقت الذى أعددنا ذلك ، أى عند بلوغ القمة ، اعترفنا ان هذه القمة سفح من السفوح •

وقد حاول أكبر علماء الغرب أن يرجعوا الى أسرار الشرق ، فضاق

علماء النفس المحدثون ذرعا بما وصلوا اليه · واعترفوا أن حدود علم النفس ضيقة جدا · وانه فى اليوم الذى نعتقد أن التعمق والتحليل والاستقصاء قد بلغت بنا طريق الفهم والسعادة ، نرى فجوة بيننا وبين المعرفة الكبرى ، وفاصلا هائلا بيننا وبين الحقيقة اللانهائية حتى لقد نصح دوموند شو ، الكاتب المشهور ، قراءه بأن يتعلموا كيف يكبحون جماح الوعى ، أى أن الانسان منا يجعل وعيه فضاءا تاما لبضع لحظات ، أعنى بمنعه من التفكير والتأمل على الاطلاق ، فى هذه اللحظة ، يتصل العقل الباطن بعقل لا نهائى ، ويلاحظ الذين مارسوا ذلك وبرعوا فيه ، أن الالهامات تترى وتتهادى فى صفاء وسطوع ·

واذن فقد انتهى العلم الى نوع من التصرف ، أو بعبارة أخرى شعر بقصور باعه · وبحاجته الى ذلك « المجهول المطلق » الذى هو وحده طريق المعرفة ، وطريق السعادة ، وبيده سر الحياة ···

فليكن شعارنا اذن أن نبحث عن الحقيقة ، مستعينين بعقلنا ومنطقنا على شرط أن نعترف بحدودنا ، ونؤمن بالقوة الخالقة التى تمدنا بالصبر والأمل وتوجهنا للخير والسعادة ·